

مَعَ ابْنِ حَلْوَنَ

شِيشِ

تألِيف

أَحْمَدُ مُحَمَّدٌ الْجُونِي

المدرس بكلية دار العلوم — جامعة فؤاد الأول



ملزوم الطبع والنشر

مَكْتَبَةُ نَهْضَةِ مَصْرٍ

شارع كامل باشا صدق «الفجالة»

مطبعة نهضة مصر

مَعَ ابْرَحْلَوْنِ

تأليف

أَحْمَدُ مُحَمَّدُ الْحُوْنِي

المدرس بكلية دار العلوم — جامعة فؤاد الأول

مكتبة لسان العرب

www.lisanarb.com



ملتقى الطبع والنشر

مكتبة نهضة مصر

شارع كامل باشا صدق «النجالة»

مطبعة نهضة مصر



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

سعدتُ بصحبة ابن خلدون فترة خصية من الزمن ، أتلقف نظر ياته ، وألتقي منه آراءه ، وأعجبُ بعُد مداه في بسط النظرة ، وبطريقة عرضه للفكرة ، ومنهجه في التحليل والتعليق . ثم أزهَى بهذا المفكِّر العبرى العربي الذي سبق المفكرين جميعاً ، ففَلَسَفَ التاريخ ، وأَصَلَ علم الاجتماع ، فكان علماً مرموقاً في سماه التفكير العالمي المبدِّع .

لذلك عكف بعض الغربيين على دراسته ، وشادوا بعقربيته ، وأقروا له بالسبق ، وأولاه بعض الشرقيين عناءة محمودة ، ولكنها محدودة ، لأنها فيها أعلم كتابان اثنان ، أحدهما للدكتور طه حسين باشا سنة ١٩١٧ ، والأخر للأستاذ محمد عبد الله عنان سنة ١٩٣٣ . وكأن ابن خلدون في الفترة التي ينتهيما ، وفي الزمن الذي بعدهما قد فضَّ حلقة الدرس ، وانزوى عن الطلاب والعلماء ، لا يحاضر ولا يجادل ولا يُملى ولا يُوحى . وكأنه لا يستحق منا نحن الشرقيين أن نتَحَلَّقَ حوله لنسمع إليه ، ونتلق عنده ، فندفع آرائه ، ونناقش نظر ياته .

وقد رأيت أن أقوم بنصيبي في هذا المجال ، وفأَمَّا للرجل العظيم الذي صاحبته حيناً ، ورأيت أن أقصُّ دراستي على جوانب لم يُعرض لها

الدارسون ، أو هُنْ لحظوها بالنظر الخاطف العجلان . وعمدت إلى
الموازنة بين آرائه وآراء سابقيه من مفكري الإسلام ؛ لأنَّه يبلغ ما في
آرائه من أصالة أو محاكاة ، ووازنَت بين آرائه وآراء المفكرين من علماء
الغرب المحدثين ، لأُرُوز قيمتها ، وأُسْبِرَ حقيقتها ، وأكشَفَ عنها في ضوء
علم الحديث .

ثم درست أدبه نثره وشعره ، وبيَّنت خصائصه ، ومكانته وأثره
فيمن بعده .

وما توفيق إلا بالله ، وهو المهدى إلى سوام السبيل ۲

أحمد محمد الحوفي

أبريل سنة ١٩٥٢

عَصْرُ الْعِلْمِ

عاش ابن خلدون في القرن الثامن الهجري ، عصر المماليك في مصر . وكانت بغداد قد سقطت في أيدي التتار ٦٥٦ هـ ، وكان سقوطها كارثة مُنيت بها اللغة والأدب والحضارة العربية، ثم أخذت الدولة العربية تنهار في الأندلس ، فتسقط المدن في أيدي القوط واحدة بعد أخرى ، فلم يجد علماء بغداد وأدباؤها ملجأً يتلوون إليه غير مصر ، فراراً من عسف التتار بدار السلام وحاضرة الإسلام ، ورغبة عن الإقامة بها بعد ما خرب التتار معالمها ، وأنفروا في نهر دجلة كتبها . وفر علماء الأندلس إلى مصر جرعاً ما يصبه الفرجنة على المسلمين من ويلات التكيل والتعصب المقيت .

وحبّ مصر إليهم ما يسمعونه عن خيراتها وكرم أهلها ، وأنها صارت عاصمة الخلافة الإسلامية ، فعجبت بهم مصر والقاهرة ، وكانوا أخلاقاً شتى ، فيهم الفارسي والعربي والجازى الشامي والإفريقى والأندلسى . وقد حقق المماليك ظنهم ، فأكرموا وقادتهم ، ورحبو بهم ، وأعدقوا عليهم الهبات والمنح ، فاطمأنت نفوسهم بعد قلق ، وأمنت بعد هلع ، فشرعوا يأتلفون الإنتاج العلمي والأدبي ، مدفوعين بالرغبة النفسية في التأليف ، ومدفوين بتنافس على منتج ، ثم هم يريدون أيضاً أن يعيدوا إلى الجد الإسلامي رواده الذي طمس التتار معالله ، ويريدون أن يُعوضوا المكتبة العربية ما فقدته في نكبة بغداد والأندلس .

وقد كثر إنتاجهم في هذا العصر ، حتى شرقت به خزائن الكتب ، كما

كثُرت المدارس في هذا العصر كثرة لا مثيل لها من قبل ، حتى إن المدرسة الفاضلية كان بها نحو مائة ألف مجلد .

وكان القاضي الفاضل يقتني الكتب من كل فن ، ويجعلها من كل جهة ، وله نسخة ومجلدون لا يفترون ، وقد بلغ عدده كتبه قبل أن يتوفى بعشرين عاماً اثنتي عشر ألفاً وأربعين كتاباً^(١) .

وقد أنشأ المدرسة محمودية الأمير جمال الدين محمود الاستادار سنة ٧٩٧هـ وأنشأ بها خزانة كتب لا نظير لها بمصر والشام ، وهي باقية إلى اليوم – عصر المقرizi – ، ولا يُولِف عالم كتاباً إلا اقتنه ، وبها كتب من كل فن^(٢) .

وكان إنتاج العلماء على غزارته من نوع الألوان والطراائق ، يتناول كل فن وكل علم .

وكان بعضه جماعاً وتصنيفاً ، وبعضه اختصاراً مطويلاً أو تعليقاً على مختصر ، وكان بعضه ابتكاراً وتجديداً كـ«قدمه ابن خلدون» .

ثم كان بعض المؤلفين لا يقتصرُون على الجمع والتصنيف ، وإنما يتحققون ويتحققون كالـ«مقرizi» ، وـ«ابن خلkan» ، وـ«ابن مالك» ، وـ«الشاطبي» ، وـ«ابن هشام» ، وـ«ابن منظور» .

ويمتاز هذا العصر بوفرة كتبه الكبيرة الجامحة لأشتات من العلوم والثقافة والأدب ، مثل (مسالك الأ بصار في عالك الأمصار) لـ«شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمرى» (٧٠٠ - ٧٤٨هـ) و(صبح الأعشى في صناعة الإنشا) لـ«شهاب الدين أحمد بن علي القلقشندي» (المتوفى ٨٢١هـ)

و(نهاية الأرب في فنون الأدب) لشهاب الدين أحمد التوزي (المتوفى ٥٧٣٣هـ)
ولم تلتفت في هذا العصر أسماء كثيرة من العلماء والمؤلفين غير هؤلاء مثل
ابن تيمية (٦٦١هـ - ٧٢٨هـ) وابن هشام (٧٠٨هـ - ٧٦١هـ) والقسطلاني
(٩٢٣هـ - ٨٥١هـ) وابن مالك (٦٠٠هـ - ٦٧٢هـ) والسيوطى (٨٤٩هـ -
٩١١هـ) وابن منظور (٦٣٠هـ - ٥٧١١هـ) والفيروز ابادى (٧٢٩هـ - ٥٨١٧هـ).
وكان للتاريخ نصيب عظيم من عنابة العلماء، لأنهم أرادوا تسجيل ماضي
العرب والإسلام، وتوخوا أن يغنووا المكتبة العربية بعد أن أفقروا التأريخ،
ثم لأن الفرنجية تغلبوا على بعض بلاد الأندلس وطُرِحوا مما وجدوا
من مؤلفات .

على أن المؤلفين في التأريخ أشبهوا المؤرخين السابقين في جمعهم بين
التاريخ والأدب ، وأشبهوهم أيضاً في أنهم لم يجيدوا النقد لما يروى ، ولم
يعلقوا على الحوادث برأيهم الذي ينمّ على شخصيتهم العلمية ، ولم يحللوها
بتبيان دوافعها الحقيقة ونتائجها . ثم هم في دراستهم لسير السلاطين والأمراء
والوزراء لم يعرضوا للشأتمم وبيتهم وأثرها في نقوسهم وموالיהם . وهم في
دراساتهم للأمم عُثثوا بالأحداث السياسية والحريرية ، ولم يحفلوا بالحياة
الاجتماعية والاقتصادية والخلقية ، وبذلك أرخوا للملوك لا للشعوب .

أما ابن خلدون فقد نظر إلى التأريخ نظرة أخرى ، فوضع أصولاً
تكفل لل المؤرخ أن يتهدى إلى الصواب ، وأن تكون له شخصيته فيما يكتب ،
وبذل ساقيه جميعاً بعنایته بدراسة أحوال المجتمع ، وتتبع الأحداث ،
واستخلاص النتائج ، ثم إنه سلك في التأريخ مسلك الحوادث لامسلكه
الستين كما فعل الطبرى وابن مسکوبه من قبله .

وكانت بلاد المغرب عاكفة على الحديث والفقه، ولا سيما مذهب مالك وأبي حنيفة، وكانت العلوم الفلسفية هناك خاتمة الصوت، لأن الفلسفه يضطهدون، وتحرق كتبهم. يقول المقرى التلمساني (أما ملکة العلوم النظرية في مقصورة على البلاد الشرقية. ولا عنایة لحذاق القرؤین والإفریقین إلا بتحقيق الفقه فقط، ولم يزل الحال كذلك إلى أن رحل الفقيه ابن زيتون^(١) إلى المشرق، فلقي تلاميذ الفخر بن الحظيب، ولازمهم زماناً حتى تمكن من ملکة التعليم، وقدم إلى تونس فانتفع به أهلها^(٢)).

ولكن عبقرية ابن خلدون حطمت قيود البيشة، وحدود العلوم المرسومة، فتبغ في عصر ندر فيه من يجدد، وسبق أهل زمانه سبقاً لا يدرك، بل سبق من بعده سبقاً يجهد من يرسم خطاه، أو يحاول أن يبلغ مداه.

(١) ابن زيتون: أبو القاسم بن أبي بكر المتوفى ٧٣٠ هـ

(٢) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ٢٦ / ٣

حَسَانَةٌ

أُسرَةٌ :

كثير من العظام ولا سيما في البلاد الأوروبية يسطرون بأنفسهم قصة حياتهم ، وقلة من الشرقيين دونوا سيرة حياتهم موجزة ، فياقوت ترجم لنفسه في كتابه معجم الآدباء ، ولسان الدين بن الخطيب ترجم لنفسه في كتابه الإحاطة بأخبار غرناطة ، وابن حجر عرّف بنفسه في كتابه رفع الإضر عن قضاة مصر .

وقد شرع بعض المعاصرين يدونون حياتهم مفصلاً تفصيلاً ، كالدكتور طه حسين باشا في كتابه الأيام ، والأستاذ أحمد أمين بك في كتابه حياتي . وقد فعل ذلك ابن خلدون في القرن الثامن ، إذ دون تاريخه إلى ٨٠٧هـ^(١) ، فلم ينقص من حياته إلا العام الأخير .

أما اسمه وكنيته فأبو زيد عبد الرحمن بن محمد ... بن خلدون ، وخلدون هذا جده التاسع - وأصله خالد - وقد نسبت الأسرة إليه لأنه أول من دخل الأندلس من هذه الأسرة مع الغزاة الفاتحين . وأصله من عرب اليمين، ينتهي نسبة إلى وائل بن حجز ، ثم رحلوا إلى المغرب ، واشتراكوا مع طارق وموسى بن نصير في فتحها ، واستوطنوها . ولكنهم لم يশهروا إلا في أواخر القرن المجري الثالث أيام الأمير عبد الله بن محمد الأموي (٥٣٠ - ٢٧٤)

(١) كتاب التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً مخطوط . بدار الكتب

إذ غامروا مع الثائرين ، وترزعم بعضهم الثورة ، واستطاع كرَبَّاب بن خلدون أن يستقل يامارة إشبيلية ، لكنه قُتل ، وبقي بني خلدون بغير زعامة إلى أن عاد لهم مجدهم في دولة بني عَبَاد ، حيث رقوا إلى مناصب الوزارة والرئاسة .

وقد انضموا في سنة ٥٦٢ هـ إلى بني حفص ، ونزلوا معهم في بلاد البربر يدعون ضد الموحدين ، وحفظ لهم الحفصيون هذا الوفاء ، فولوا الجد الثاني لابن خلدون شتون الدولة الحفصية بتونس . ثم تولى جده الأول الحجاجي لحاكم بجاية من بني حفص ، وحارب معهم الخارجين عليهم ، وبقي مقرباً لديهم إلى ٧١١ هـ حيث سقطت تونس في قبضة زعيم الموحدين . فقر به إليه واتخذه حاجبه ، وبقي في منصبه إلى أن توفي سنة ٧٣٧ هـ .

وأما أبوه فإنه باعد بين نفسه والسياسة ، لأنه رآها حافلة بالأحداث والفتن ، وأثر أن يعكف على القراءة والدرس ، وكان ميله الخاص إلى علم الفقه واللغة وقرض الشعر . وقد توفي سنة ٧٤٩ هـ .

برنة :

كانت أسرته مشهورة بالسياسة وبالعلم والأدب ، فتسلمه على أبيه أولاً ثم على علماء المغرب ، وأحاط بشقاقة عصره ، وكان لها ولذلك أنه أثر عظيم في فكره . وإذا علم أن أسرته كان لها شأن عظيم في خدمة الملك وتصريف الأمور فقد اشتاق إلى أن يمارس ما مارسوه من قبل ، فعمل كاتباً للسلطان أبي إسحق الحفصي ، ثم للسلطان أبي عنان المريني سلطان المغرب الأقصى ، ثم أبي سالم المريني . ثم رحل إلى غرناطة في ظل السلطان محمد بن الأحمر ووزيره لسان الدين بن الخطيب ، وحيثند أرسله أبن الأحمر إلى ملك قشتالة الإسباني

ياشيلية فنجح في سفارته وعاد موفقا . ثم رجع إلى بجاية حيث تولى منصب الحجابة . ثم تحول عن السياسة واشتغل بالتدريس بمدينة بسكرة ، ثم خرج إلى فاس ، ثم عاد إلى الأندلس بعد مقتل ابن الخطيب ، ثم طرده محمد بن الأحرم ، فاختار تلمسان وعاش في ظل أميرها أبي حمو ، ثم نزل في رعاية أولاد عريف في قصر لهم بقلعة سلامة ، وعاود العزم على أن ينقطع عن السياسة ، فكثـر هناك أربع سنوات ألف فيهن مقدمته ، وكتب تاريخ العرب والبربر وزناته ، ولكنـه شعر بحاجته إلى بعض المراجع ، فاستأذن آل حفص في العودة إلى تونس ، فأجابوه ، وهناك أكبـ على المراجعة ، وأتم تاريخـه .

ولما اشتغل بالتدريس والتأليف ، واستفاضت شهرته في الآفاق حتى عليه علماء تونس الذين سلبـهم شهرتهم ، واجتذبـ منهم طلاـبـهم ، فوشـوا به إلى السلطـان . فلما علم بـوشـائهم تذرـع للخلاص ، فاستـأذنـ في الرحلة إلى المـشرق ليـحجـ ويـتمـ تاريخـه ، وـكانـ في نفسه يـزـمعـ مصرـ .

وصل إلى مصر ٧٨٤ هـ في عـهدـ الملكـ الظـاهرـ بـرقـوقـ ، وـدرـسـ فيـ المـدرـسـةـ الـقـمـحـيـةـ بـجـوـارـ جـامـعـ عـمـرـ وـ، ثـمـ فيـ المـدـرـسـةـ الـظـاهـرـيـةـ الـبـرـقـوـقـيـةـ ، وـدرـسـ أـيـضاـ فيـ الـأـزـهـرـ . لـكـنهـ لمـ يـذـكـرـ الـعـلـومـ الـتـيـ درـسـهاـ ، وـلمـ يـذـكـرـ الـكـتـبـ الـتـيـ عـلـمـهـاـ وـقـرـرـهـاـ .

وفي مصر تولـى قـضـاءـ الـمـالـكـيـةـ ستـمرـاتـ ، وـكانـ يـعـزلـ لـأـنـهـ يـلحـ فيـ الإـصـلاحـ ، وـلـأـنـ حـسـادـهـ نـهـازـونـ لـلـفـرـصـ .

ونـُكـبـ بـغـرقـ أـهـلـهـ وـأـلـادـهـ فـيـ الـبـحـرـ وـهـمـ مـقـبـلـونـ إـلـىـ مـصـرـ ، فـزـنـ

لذلك ، ونفَّس عن نفسه بالحج ٨٧٩ هـ ثم سافر إلى فلسطين ليشاهد آثارها
سنة ٨٠١ هـ .

ولمادهم تيمور لنك الشام ٨٠٣ هـ خرج للقائه السلطان الناصر فرج .
وأصطحب معه جلة العلماء ، وفيهم ابن خلدون ، ونزل العلماء في المدرسة
العادلية ، ولقي ابن خلدون تيمور لنك وحادثه .

وكان ذلك في سنة ٨٠٣ ، وهو يقص في كتابه التعريف أنه تحدث مع
تيمور لنك طويلاً ، وأنه سأله عن بلاد المغرب وأحواله وسلطانيته ،
وطلب منه أن يكتب له رسالة في وصف المغرب ، وأن ابن خلدون شرح
له بعض آرائه التي يراها في الملك والعصبية ^(١) .

ثم عاد إلى مصر ، وعاود التدريس والقضاء ، حتى توفي ٨٠٨ هـ .

(١) التعريف بابن خلدون .

شَافِعٌ

كان أبوه معلمه الأول، قرأ عليه القرآن وحفظه، وتفقه في القراءات

السبعين .

وكان تونس إذ ذاك مزداناً بعلماء المغرب وأدبائه، وكانت منزلة
الوافدين عليها من علماء الأندلس الذين شتتتهم أحداثها أو لم يجدوا طمانينة
وخيراً في الإقامة بها، فتلمذ بعد أبيه على هؤلاء وهؤلاء، فدرس عليهم
العلوم الشرعية من تفسير وحديث وفقه وأصول على مذهب الإمام مالك،
والعلوم العربية من لغة ونحو وأدب، والعلوم الفلسفية ولا سيما المنطق،
وقد برع فيه براعة عظيمة، وهو يحدثنا بهذه البراعة وبئناء أساتذته عليه ،
وتشجيعهم له بالجوائز ، ويحدثنا أيضاً أنه حفظ المعلقات وديوان الحماسة ،
وغيرهما من شعر القدامي والمحدثين ، ويحدثنا عن دراسته للموطأ وصحيح
مسلم ، وقراءاته لفلسفة ابن رشد والتصوف الإسلامي ، ودراساته الجغرافية
في كتاب بطليموس والشريف الإدريس . ويحدثنا أيضاً عن أساتذته
ونبوغهم في العلوم التي درسها عليهم ^(١) . وقد يجوز لنا أن نزتاب قليلاً في
بعض ما ذكر ، لأنه كتب هذا التعريف بنفسه وهو في مصر حيث المناسبة
والاحقاد ، والتبزيز في العلوم ، والأنداد المتألبون عليه ، فمن المتوقع أن
يبالغ في تفصيل تعلمه وعلومه ، وأن يبالغ في ذكر الكتب التي درسها ، وفي
أقدار أساتذته الذين تلقى عليهم ، لئلا يبدو أمام علماء مصر المنافسين له أقل
اطلاعاً ، وأقصر باعاً .

(١) التعريف والمقدمة ٥١٠

والحق إن الفلسفة التي كتبها للتاريخ ، وبصره بأحوال الاجتماع ، ونظراته الصائبة الدقيقة في علم الاجتماع ، كل أولئك يشهد له بالعصرية والاطلاع الواسع . ولا عجب ، فقد اطلع على مكاتب تونس ومرَاكش وغرناتة والقاهرة ودمشق وقلعة سلامة ، وأفاد من أسفاره وتنقله في هذه الأقطار خبرة واسعة ، ثم إنه قضى نحو ربع قرن في خدمة الملوك يغامر في ميادين السياسة ، ويجوس خلال البلدان يدرس ويستقصى ويلاحظ ويختزن ما يلاحظ وينتفع به . فنحن نعلم أنه نشا بالمغرب وعرف أحواله ، ودرس قبائله ، وخبر بدوه وحضره . ونعلم أنه رحل إلى الأندلس ، وتعرف حال من بيـنـها من المسلمين ، ونعلم أنه جاء إلى مصر ودرس بها وتولى قضاء المالكية ، واطلع على كثير من شؤونها وحضارتها وحالـتها الاجتماعية ، وأنه سافر إلى الشام وعرف شؤونها ، وأنه حج ولقي كثيراً من المسلمين فعرف أحوال الحجاز والمحجـيج . ونعرف أيضاً أنه اتصل بـملوك عـصـره ، فعرف كثيراً من دخـائلـ السياسة ، فقد اتصل بـسلطـانـ البرـبرـ ، وـغـرنـاتـةـ ، وـسـلـطـانـ مصرـ ، وـاتـصلـ أيضاًـ بـتـيمـورـ لـنكـ .

هذا إلى أن عـصـرهـ كانـ يـعـجـ بالـأـحـدـاثـ ، وـقدـ شـهـدـهاـ وـاستـفـادـ منهاـ ، فالـعـربـ وـالـبـرـبـرـ فيـ صـرـاعـ ، وـالـبـدـوـ وـالـحـضـرـ فيـ نـزـاعـ ، وـالـسـلاـطـينـ يـتـحـارـبـونـ ، وـالتـارـيـخـ يـجـمـونـ . ولاـ شـكـ أنـ هـذـهـ الـأـحـدـاثـ أـوـحـتـ إـلـيـهـ بـآـرـانـهـ فيـ الـبـدـوـ وـفـيـ الـحـضـرـ ، وـفـيـ قـوـةـ الـدـوـلـ وـضـعـفـهاـ ، وـنـشـأـتـهاـ وـزـوـاـهـاـ .

على أن لا أغفل ينبوعاً آخر من ينابيع ثقافته هو عـقـريـتهـ ، لأنـ ابنـ خـلـدونـ كانـ ذـاـ عـقـلـ جـبارـ مـبـدـعـ ، لاـ يـمـلـ التـزـودـ مـنـ الـعـرـفـ ، وـفـيـ الـوقـتـ نـفـسـهـ يـجـيدـ الـانتـفاعـ بـماـ عـرـفـ . فقدـ توـلـىـ الـكـتـابـةـ جـوـودـ ، وـاشـتـغلـ

كاما للسر فأبدع ، وندب للسفرة واستهلاة الخارجين فنجح ، وتولى الحجابة فبرز ، وولي القضاء فأنصف ، وألف فتفوق وابتكر ، ودرس فشرفت حلقات درسه بالطلاب المعجبين .

مؤلفاته :

قال لسان الدين بن الخطيب إن ابن خلدون عاجي المنطق ، ولخص كثيراً من كتب ابن رشد ، ولخص محصل الإمام الفخر الرازى في علم الكلام . وألف كتاباً في الحساب ، وألف كتاباً في المنطق ، وشرع في هذه الأيام يشرح الرجز الصادر عنى في أصول الفقه بشيء لا غاية بعده في الكمال ، وله شرح بديع للبردة ^(١) .

ولقد ذكر هذه المؤلفات قبل أن يطلع على آية بن خلدون : المقدمة والتاريخ . فهو يجهل ما نعلم ، ونعلم ما جهل ، لأننا لا نعرف من مؤلفاته التي ذكرها شيئاً ، ونحسب أن ابن خلدون قد ذكر في المقدمة بما ذكره لسان الدين حين تكلم على العلوم ونشأتها وتطورها ومراجعها ، لأن ابن خلدون لم يذكر منها شيئاً في تعريفه بنفسه .

مصادره :

استقى ابن خلدون من ساقيه في التاريخ وفي الاجتماع ، فأخذ بعض آرائه من الفارابي في (آراء أهل المدينة الفاضلة) ، أخذ عنه حاجة الإنسان إلى الاجتماع ، ونشأة المدن والقرى ^(٢)؛ وتأثر به في تقسيم العلوم كما سنرى ^(٣)

- (١) الإحاطة في أخبار غرناطة في الجزء الأخير ترجمة لابن الخطيب بقلمه وفتح الطيب ١١/٤ المقرى (٢) آراء أهل المدينة الفاضلة ٥٣
(٣) إحصاء العلوم للفارابي . تحقيق الدكتور عثمان أمين

واستقى من إخوان الصفا في تقسيمهم العلوم وأرائهم في تأثير طبيعة البلدان في الأخلاق ، وتقسيمهم الصناعات وعناصرها المحتاجة إليها ، على أنه خالفهم لأنهم فلاسفة نظريون وهو فيلسوف عملي . كما اعتمد في تقسيم العلوم على مفاتيح العلوم للخوارزمي ، ونقل كثيراً من الآراء السياسية عن كتاب (الأحكام السلطانية) لأبي الحسن الماوردي ، وكتاب الوزارة وسياسة الملك) و (سراج الملوك) للطروشى الأندلسى . وكذلك عن كتاب أرسسطو في السياسة . وهو نفسه يرشدنا إلى بعض ذلك في مقدمته إذ يقول: (في الكتاب المنسوب لArsسطو في السياسة ، المتداول بين الناس جزء صالح ، إلا أنه غير مستوفي ، ولا معطى حقه من البراهين ، ومحاط بغيرة .. وكذلك تجد في كلام ابن المقفع وما يستطرد في رسائله من ذكر السياسات الكثير من مسائل كتابنا هذا غير مبرهنة كما برهناه ... وكذلك حوم القاضى أبو بكر الطروشى في كتاب سراج الملوك ، أو بوبه على أبواب تقرب من أبواب كتابنا هذا وسائله ، لكنه لم يصادف فيه الرَّمِيمَة ، ولا أصاب الشاكلة ، ولا استوفى المسائل ، ولا أوضح الأدلة^(١))

ثم يذكر جالينوس وكتابه منافع الأعضاء^(٢) ، وبطليموس وكتابه الجغرافيا^(٣) ، وكتاب رجار للشريف الإدريسي^(٤) ، وكتاب المشترك لياقوت^(٥) ، وكتاب ابن سعيد^(٦) وغيرهم . ويذكر المؤرخين كابن سحق والطبرى وابن الكلبى والواقدى والمسعودى وأبى حيان وابن الرقيق^(٧) وغيرهم وغيرهم . ويذكر كثيراً من الفلاسفة مثل ابن سينا والفارابى وأرسسطو^(٨) .

(٢) المقدمة ٢٨

(٦) المقدمة ٤٦

(٢) المقدمة ٢٥

(٥) المقدمة ٤٧

(٨) المقدمة ٤٥٦ ، ٧٢

(١) المقدمة ٣٣

(٤) المقدمة ٤٤، ٣٨

(٧) المقدمة ٣

شخصيّته

استقى ابن خلدون من سابقيه ، وقرأ المؤلفات التي كانت إلى عصره ، ولكنه كان ذا شخصية تبرز فيها يكتب .

لذلك فقد المؤرخين في مقدمته ، ورأى أن فن التاريخ (يحتاج إلى مأخذ متعددة أو معارف متنوعة ، وحسن نظر وثبت ، يفضيان بصاحبها إلى الحق ، وينكبان به عن المزلاط والمغالط ، لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والآحوال في الاجتماع الإنساني ، ولا قيس الغائب منها بالشاهد ، والحاضر بالذاهب ، فربما لم يؤمن فيه من العثور ، ونزلة القدم والحيد عن جادة الطريق . وكثيراً ما وقع لل المؤرخين والمفسرين وأئمّة النقل المغالط في الحكايات والواقع ، لاعتمادهم على مجرد النقل غثاً أو سيناً ، لم يعرضواها على أصولها ، ولا قاسوها بأشباهها ، ولا سبروها بمعيار الحكمة ، والوقوف على طبائع الكائنات ، وتحكيم النظر وال بصيرة في الأخبار ، فضلوا عن الحق ، وتابوهوا في يد أباء الوهم والغلط ولا سيما في إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر .) ثم يضرب أمثلة على ذلك ^(١) .

ويرى أن يتزود المؤرخ بثقافات شتى (يحتاج إلى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات ، واختلاف الأمم والبقاء والأعصار ، في السير والأخلاق والعادات والنحل والمذاهب وسائر الآحوال ، والإهاطة بالحاضر من ذلك ، ومماطلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق أو من الخلاف ، والقيام على أصول الدول والمملل ، ومبادئ ظهورها وأسباب حدوثها ،

(١) المقدمة ٧

وأحوال القائمين بها وأخبارهم ، حتى يكون المؤرخ مستوعاً لأسباب كل حادث ، واقفاً على أصول كل خبر . وحينئذ يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد والأصول ، فإن وافقها وجرى على مقتضها كان صحيحاً ، وإلا زيفه واستغنى عنه ^(١) .

وبهذا النظر العميق ، والفحص الدقيق وضع ابن خلدون أساس علم التاريخ وفلسفة الاجتماع ، لأن البحوث التي سبقة غيره إليها كانت ضئيلة وبمغيرة ، ولا يجمعها منهج ، فليست دراسة علمية موحدة ، ولن يست لها أصول تعتمد عليها ، ولا أهداف ترمي إليها .

لكنه قرأ ذلك وقرأ غيره ، وأحاله مادة أخرى جديدة ، ذات منهج مرسوم وخطة بينه ، وطابع خاص ، حتى ليصح له أن يقول (واعلم أن الكلام في هذا الغرض - يريد الاجتماع - مستحدث الصنعة ، غريب النزعة ، أَعْتَرَ عليه البحث ، وأدى إليه الغوص . . . ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخلقة ، لا أدرى ، أَفَغَلْتُهُمْ عَنْ ذَلِكَ ؟ وليس الظن بهم ، أو لعلهم كتبوا في هذا الغرض واستوفوه ، ولم يصل إلينا . . . وهذا الفن الذي لاح لنا النظر فيه نجد منه مسائل تجري بالغرض لأهل العلوم في براهين علومهم . . . ^(٢))

ومن الطبيعي أن يكون ابن خلدون قد أعاد تنقيح مقدمته ، وراجع تاريخه في مصر ، لأنه بعد خمسة عشر عاماً من تأليف كتابه أهدى نسخة منه وهو في القاهرة إلى سلطان المغرب الأقصى عبد العزيز بن أبي الحسن ، فلا بد أنه نفعها في خلال هذه المدة .

ويقى كد بعض مؤرخيه أنه نفعها وحذف منها وأضاف إليها ، ويرون

أنه كتب في مصر فصولاً جدعاً . وسواء أكان هذا أم ذاك ، فقد كانت بين مصر وأفريقيا وبين مصر والأندلس صلات مستمرة ، مكنته من أن يطلع على الإنتاج العقلى في مصر . وهو نفسه يذكر ذلك في عدة مواضع من المقدمة ، منها إعجابه بكتاب المغنى الذى ألفه جمال الدين بن هشام المصرى فيقول (ووصل إلينا بالغرب لهذه العصور ديوان من مصر منسوب إلى جمال الدين بن هشام من علمائنا ، استوفى منه أحكام الأعراب جملة ومفصلة ... وسماه المغنى في الإعراب ، وأشار إلى نكث إعراب القرآن كلها ، فوقفنا منه على علم جم يشهد بعلو قدره في هذه الصناعة ، ووفر بضاعته منها ... فأقى من ذلك بشيء عجيب دال على قوة ملكته وإطلاعه) ^(١) .

ويذكر أن حضارة تونس متأثرة بحضارة مصر والأندلس ^(٢) .

وقد كان في مصر في ذلك العهد ميل إلى التوسيع في المعارف ، وتأليف الموسوعات العلمية كما سبق ، فثلا حاول النويري المتوفى ٧٣٢ هـ أن يجمع معارف عصره كلها على اختلاف ألوانها في مؤلف واحد من ثلاثة جزءاً سماه (نهاية الأرب) . ووضع العمرى المتوفى ٧٤٨ هـ موسوعته الجغرافية في اثنين وثلاثين مجلداً سماها (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار)

ولعل ابن خلدون قد اطلع على هذه المؤلفات فزادته معرفة ، أو نبهته على نواح من النظر لم يكن قد تعمق فيها حينها ألف مقدمته في تونس ، لأن عقله كان خلاقاً ، يرشف القطرة فيحو لها جدو لا رقاقاً .

مكانته وأثره

تتلمذ عليه في مصر جمهرة من أعلام التفكير المصري ، فأشربوا آرائه الاجتماعية التي كان يذيعها عليهم ، وظهر هذا الأثر جلياً في بعض مؤلفاتهم . فقد درس عليه وتأثره الحافظ بن حجر العسقلاني المحدث والمورخ (٨٤٥ھ) ، وتتلمذ له وأعجب به المقرizi (٨٥٢ھ) واعتنق مذهبها الاجتماعي ، ورفع مقدمته مكاناعليا ، وترسّه في كتابه (إغاثة الأمة بكشف الغمة) . ويتحدث عن المقدمة فيقول (لم يعمل مثلها ، وإنه لعزيز أن ينال مجده منها ، إذ هي زبدة المعارف والعلوم ، ونتيجة العقول السليمة وال فهو ، توقف على كنه الأشياء ، وتعرف حقيقة الحوادث والأنباء ، وتعبر عن حال الوجود ، وتبنيه عن أصل كل موجود ، بلفظ أبيه من الدر النظم^(١) ، وألطف من الماء سري به النسم) . وتأثره في نظرته إلى مصر والمصريين كما سيجيء .

وتأثره السخاوي أيضاً في عدة فصول من كتابه (الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ) .

ونحا نحوه القلقشندي (٨٢١ھ) ، ونقل عنه فصولاً في كتابه (صبح الأعشى) .

وقد كانت المقدمة وما زالت مدد الذين يكتبون في الاجتماع وفي تاريخ العلوم ، فقد استعان بها كثيراً حاجي خليفة التركى في كتابه (كشف الظنون) ، وخير الدين باشا التونسي في مقدمة تاريخه ، ووجدت باشا التركى في تاريخه

وأبو الطيب صديق حسن خان الهندى ملك باهوبال فى كتابه أبجد العلوم ، وقد نقل عن ابن خلدون كثيراً ، والعلامة طاش زاده فى كتابه مفتاح السعادة ، والقاضى عبد النبي بن عبد الرسول الهندى فى كتابه دستور العلامة أو جامع العلوم .

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر عن الغربيون بدراسة النظريات الاجتماعية لابن خلدون ، ووجدوا أنه قد سبق إلى كثير من النظريات ، وعاجلها قبل أن يعالجها علماء الغرب بقرون ، نعم ، فقد طرق نظريات ردها بعده مكيافلى ، فېكىو ، ومونسكىو ، وآدم سميث ، وأوجست كنت ^(١) . وكان المعتقد أن البحث الغربى هو الذى تهدى إلى فلسفة التاريخ ، ومبادئ الاجتماع وأصول الاقتصاد ، فإذا بابن خلدون يسبقه بعصور ، ويعالج في مقدمته كثيراً من مناحي هذه الموضوعات بقوه وبراعة .

لذلك يرى كثير من الغربيين والشرقين تشابهاً قوياً أحياناً بين آراء ابن خلدون وآراء مونتسكىو كما سنرى في البيئة الطبيعية والاجتماعية ، ويرون تشابهاً قوياً بين بعض آرائه وآراء جاستاف لوبيون .

أما مكانته العلمية العالمية فما زال عسى أن نقول فيها أكثر من أنه مبتكر

(١) ابن خلدون . محمد عبد الله عنان ص ١٩٤ مكيافلى : مؤرخ وسياسي إيطالى (١٤٦٩ - ١٥٢٧) . فېكىو : مؤرخ وفيلسوف إيطالى (١٦٦٨ - ١٧٤٤) مونسكىو : مشروع وفيلسوف اجتماعى فرنسي (١٦٦٩ - ١٧٥٥) آدم سميث : اقتصادى انگلیزى (١٧٢٣ - ١٧٩٠) . كونت : فيلسوف فرنسي وهو واضح أصول الفلسفة الوضعية (١٧٩٨ - ١٨٥٧) .

فلسفة التاريخ ، وواضع علم الاجتماع ، والسبّاق إلى كثير من الآراء الحديثة
التي يظن الكثير أنها من ابتداع الغرب ؟

وقد شاد بذكره الغربيون وأعجبوا بعقريته . يقول العالم الاجتماعي
جِيلُوقْتُش : «إن ابن خلدون عرف تأثير البيئة والتربية بالوسط قبل أن يعرفه
دارون بخمسة قرون ، وسبق مكيافيلي في سياساته التي رسّها للأمير . ويقول
أيضاً (لقد أردنا أن ندلل على أنه جاء قبل أو جوست كونت ، بل قبل
(فيكو) الذي أراد الإيطاليون أن يجعلوا منه أول اجتماعي أوروبي مسلم
تقى فدرس الظواهر الاجتماعية بعقل متزن ، أو أتى في هذا الموضوع بأراء
عميقة ، وما كتبه هو ما نسميه اليوم علم الاجتماع »^(١) ويوافقه في هذا
الرأي العلامة الاجتماعي الإيطالي (فريرو) والكاتب الاجتماعي الروسي
(ليفين) والأستاذ الأمريكي (ناتانيل)^(٢) .

ويرى (دى بوير) الهولندي أن ابن خلدون فيلسوف في صف
ابن سينا وابن رشد والغزالى وابن الطفيل . ويختتم بحثه عن ابن خلدون
بقوله (لقد أَمْلَى ابن خلدون فيمن يخلفه ، فيتهم بحثه من المسلمين ، ولكن
أمله لم يتحقق ، وبقي بغير خلف كما كان بغير سلف)^(٣) .

والحق إن ابن خلدون نثر بين أيدينا من ثمرات أفكاره الرطب الجني
اليابع ، في التاريخ وفلسفته ، وعلم الاجتماع ، وتاريخ العلوم ، والتربية ،
لذلك حظى بتقدير عظيم في العصر الحديث ، فترجمت مقدمته إلى كثير من
اللغات ، وكتب عنه كثير من العلماء في ألمانيا وإنجلترا وفرنسا وإيطاليا

(١) ابن خلدون ١٥٢ عنان (٢) ابن خلدون ١٥٢ (٣) ابن خلدون ١٥٠

وأمريكا ، وتبهله المصريون فطبعوا كتابه وقرءوه وفهموه ، وكتب بعضهم دراسات قيمة عن نظرياته .

لكنهم جميعاً خصوا بعنایتهم آراءه في الاجتماع أو أصول التاريخ والاقتصاد ، وتحظوا آراءه المتصلة بالتربيـة ، سواء في ذلك التربية بمعناها الخاص ، والتربية بمعناها العام (أى عواملها غير المقصودة كالبيئة الطبيعية والاجتماعية) ، وعلم النفس . كما أغفلوا مكانـته الأدبية وخصائصـه الأسلوبـية .

وستكون دراسة هذه النواحي دراسة قصصـية ، ونظمـها في نهج واحد من موضوعـات هذا الكتاب .



التربية الإسلامية قبله

كَفِ المُسْلِمُونَ أَيْمًا كَلَفَ بِالْعِلُومِ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا، وَشُغِّلُوا أَيْمًا
شُغْفَ بِنَسْرِ الْعِلْمِ فِي كُلِّ بَلْدٍ حَلَوْهُ أَوْ احْتَلَوهُ ، حَتَّى لَقِدْ أَثْرَ عَنْهُمْ إِذَا
مَا هَبُطُوا مِصْرًا سَارُوا إِلَى بَنَاءِ مَسْجِدٍ وَمَدْرَسَةٍ، فَكَانَتِ الْمَآذِنُ تَتَجَابُ،
وَحَلْقَاتُ الدُّرُوسِ تَتَنَاوِبُ ، فَقَامَتِ الْحُضَارَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ عَلَى الدِّينِ
وَعَلَى الْعِلْمِ .

وَقَدْ ضَرَبَ الْمُسْلِمُونَ بِسَهَامِهِمْ فِي أَنْوَاعِ الْمَعْرِفَةِ مِنْ عِلُومٍ شَرِيعَةٍ (فَقَهَّ
وَتَقْسِيرٍ وَحَدِيثٍ) وَعِلُومٍ أَدِيَّةٍ (نَحُوٌ وَصَرْفٌ وَبِلَاغَةٌ وَعَرْوَضٌ وَلُغَةٌ
وَكِتَابَةٌ وَقِرَاءَاتٌ وَتَارِيخٌ) وَعِلُومٍ رِيَاضِيَّةٍ (هِنْدِسَةٌ وَفَلَكٌ وَحِسَابٌ وَجِبْرٌ
وَمُوسِيقٌ وَسِيَاسَةٌ وَتَصُوفٌ وَأَخْلَاقٌ) وَعِلُومٍ عَقْلِيَّةٍ (مَنْطِقٌ ، وَمَنْاظِرَةٌ ،
وَعَقَائِدٌ وَسَمْعِيَّاتٌ ، وَطَبٌ ، وَأَصْوَلٌ وَكِيمِيَّاتٌ وَعِلُومٍ طَبِيعِيَّةٍ) ، وَعِلُومٍ
مُنْوِعَةٍ (مَسَاحَةٌ وَطَبِ يَبْطِرِيٌّ وَزَرَاعَةٌ وَسُخْرَةٌ وَتَنْجِيمٌ وَتَفْسِيرُ أَحْلَامٍ ^(١) .
وَكَانَتِ الْمَدَارِسُ فِي الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ لَا يَكَادُ يَحْصِي عَدْدُهَا ، وَكَانَتْ
تَنْقَسِمُ إِلَى ابْتَدَائِيَّةٍ وَثَانِيَّةٍ وَعَالِيَّةٍ .

فَنَ الطَّبِيعِيُّ أَنْ يُسْهِمُ الْمَرْبُونُ فِي هَذَا الْمَجَالِ ، وَهُمْ قَدْ أَسَهَّمُوا ، وَقَدْ
كَثُرُوا ، وَبِحَسْبِنَا أَنْ نَذْكُرَ بَعْضَ أَعْلَامِهِمُ الَّذِينَ سَبَقُوا ابْنَ خَلْدُونَ ، وَهُمْ
كَثِيرٌ ، مِنْهُمُ الْجَاحِظُ – الْمُتَوْفِيُّ سَنَةً ٢٥٥ هـ – فَقَدْ ثَرَ فِي مَوْلَفَاتِهِ كَثِيرًا
مِنْ آرَائِهِ وَآرَاءِ سَابِقِيهِ مَتَّصَلَةً بِالتَّرْبِيَّةِ ، وَنَسْبَ إِلَيْهِ يَاقُوتُ كِتَابُ الْمَعْلِمِينَ ^(٢)

(١) تقسيم أبي يحيى زكي يا الانصارى في كتابه (المؤلوخ النظمي في روم التعلم والتعليم) ص ٧ (٢) معجم الأدباء ١٦ / ١٠٧ .

وهو لم يصل إلينا . ومنهم **أحمد بن سهل البَلْخِي** — المتوفى سنة ٥٣٢ هـ — وكان معلماً رفعه عليه إلى مرتبة علمية ، وله كتب شتى منها كتاب أقسام العلوم ، وكتاب ذم المعلمين والوراقين ، وكتاب أدب السلطان والرعاية ، وكتاب **أخلاق الأمم**^(١) . ومنهم **الفارابي** — المتوفى سنة ٥٣٩ هـ — مؤلف آراء أهل المدينة الفاضلة ، ورسالة السياسة ، وابن سينا — المتوفى سنة ٤٢٨ هـ — مؤلف هدية الأمير ، وهي رسالة في القوى الإنسانية ، والشفاء وهو أوسع كتاب عربي فلسفى ، والنجاة وهو مختصر له في ثلاثة أجزاء ، وله رسالة في السياسة . ومنهم إخوان الصفا — القرن الرابع — ولهم رسائل مشهورة عددها إحدى وخمسون رسالة ، وهي دائرة معارف فلسفية علمية .

ثم جاء بعد هؤلاء النمرى القرطبي — القرن الخامس — مؤلف جامع بيان العلم ، والغزالى — القرن السادس — صاحب الإحياء ، وفاتحة العلوم ، وميزان العمل . والسهروردى — القرن السادس — مؤلف آداب المريدين . والزرنوجى — القرن السابع — مؤلف تعليم المتعلم طريق التعلم . وابن جماعة — القرن الثامن — صاحب تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم . هؤلاء وغيرهم قد سبقو ابن خلدون ، وكانت لهم آراء شتى في مناهج التربية ، في مناهج الدراسة ، ونظمها ، وطراحتها ، وفي أخلاق الطلبة والمعلمين الخ ، وسبعين من دراستنا لابن خلدون نواحي المشابهات والمفارقات بينه وبينهم ، وسنوازن بين آرائه وأرائهم ، وبين آرائه وأراء غيرهم من المربين والعلماء الغربيين .

وإني لأرجو أن تكون هذه الدراسة عونا على جلاء ناحية مجهولة أو مهملة من نواحي علامتنا الكبير .

البيئة الطبيعية وأثرها

نوطنة

نقل ابن خلدون تقسيم الأقاليم عن الشري夫 الإدريسي ، من كتابه الذي ألفه للملك رجار الثاني ملك صقلية في منتصف القرن السادس الهجري ، فقال إن نصف الأرض الشمالي سبعة أقاليم ، وهو النصف المعمور ، أما النصف الجنوبي فإن حرارته الشديدة و ما وراءه الغامر يجعلان العمران فيه نادراً قليلاً ^(١) .

وكان الإدريسي نفسه يعتقد أن النصف الجنوبي قفر خلي من الأناسي ، لشدة حرارته وإنعدام مائه ، لكن ابن رشد رأى غير هذا الرأي ، إذ فرر أن النصف الجنوبي كالشمالي في طبيعته وسكانه و هبوط الحرارة في بعض أنحائه ، فهي تهبط ما ابتعدنا عن خط الاستواء . ورأى ابن خلدون أن المشاهدة والأخبار المتواترة تدحض الرأي الذي يجرد من العمران خط الاستواء وما وراءه ، على أنه عمران قليل . ثم قاله : وقد زعم ابن رشد أن خط الاستواء معتدل ، وأن ما وراءه في الجنوب بمثابة ما وراءه من الشمال ، فيعمر منه ما عمر من هذا ، والذى قاله غير ممتنع من جهة فساد التكوين ، وإنما امتنع فيما وراء خط الاستواء في الجنوب ؛ لأن العنصر المائى غمر وجه الأرض هناك إلى الحد الذى كان مقابلة من الجهة الشمالية قابلاً للتكون ، ولما امتنع المعتدل لغلبة الماء تبعه ما سواه ^(٢) .

وإذا ما رجعنا إلى رأى الإدريسي - عمدة ابن خلدون في الجغرافيا^(١) - وجدناه يحدد هذه الأقاليم في خريطته التي نشرها الاستاذ كونراد ميلر الألماني ، فالإقليم الأول يبدأ من خط الاستواء إلى درجة ٢٣ شمالاً ، والثاني من ٢٤ إلى ٢٩ ، والثالث من ٣٠ إلى ٣٥ ، والرابع من ٣٦ إلى ٤١ ، والخامس من ٤٢ إلى ٤٧ ، والسادس من ٤٨ إلى ٥٣ ، والسابع من ٤٩ إلى ٥٩ . وإذ كانت نظرية الإدريسي أن المعمور من نصف الكرة الشمالي ينتهي إلى درجة ٦٣ ، لأن ما بعدها شديد البرودة مغمور بالثلج غير صالح للحياة وال عمران ، إذ كانت نظريته كذلك فقد أضاف إلى الإقليم السابع أربع درجات آخر ، وبهذا ينتهي نصف الأرض المعمور بدرجة ٦٣ شمالاً .

وقد جارى ابن خلدون هذا التقسيم ، ورأى أن الإقليم الرابع - من ٢٦ إلى ٤ درجة شمالاً - أكثر الأقاليم اعتدالاً ، وما على حفافيء من من الثالث والخامس أقرب إلى الاعتدال . ورأى أن الإقليم الثاني والسادس بعيدان من الاعتدال ، وأن الأول والسابع أكثر بعدها . فالإقليم المعتدل هو الثالث والرابع والخامس (٣٠ - ٤٧ شمالاً) على تفاوتها في مقدار الاعتدال^(٢) .

أثر البيئة الطبيعية في الجسم

عرض ابن خلدون لتأثير البيئة الطبيعية في الجسم والعقول والأخلاق^(٣) ، وذهب إلى أن سكان الأقاليم المعتدلة الثلاثة (أهل المغرب والشام والهزار واليمن وال伊拉克 والهند والسندي والصين والأندلس ومن

١٠٧ (١) المقدمة ٤٤

٦٩ (٢) المقدمة ٤٣ -

(٣) المقدمة ٤٤

قرب منها من الفرنجة والجلالة والروم واليونان) أعدل أجساما وأصفي الألوان^(١).

وقال إن سكان الأقاليم الحارة سود ، لأن الشمس تسامت رموزهم مرتين متقاربتين في كل سنة ، فتسفعهم بحرارتها وضوئها ، وتلوح جلودهم بنارها . وقد أخطأوا الذين عزوا سوادهم إلى دعوة جدهم نوح على أبيهم حام ، لأن في هذا الكلام غفلة عن طبيعة الحر وأثرها في الألوان وفي الحيوان^(٢) .

وقال إن سكان الإقليمين السادس والسابع يضيّن البشرة ، لأن هواءهم بارد ، والشمس لا تتجاوز آفاقهم في أوجها ، فيضعف الحر ، ويشتد البرد عامة الفصول ، فتديض الألوان ، وتزرق العيون ، وتصهب الشعور ، وتبُرُّش الجلد ، لهذا قال ابن سينا في أرجوزته .

بالزنج حر غير الأجسادا حتى كسا جلودها سوادا
والصلب اكتست البياضا حتى غدت جلودها بضاضا^(٣)

ورأى أن الناس الذين يعيشون في إقليم قفر شحيح يقتانون بالنافه من الطعام أقوى أجسامنا من المترفين الناعمين ، فألوانهم أصفي ، وأبدانهم أدق ، وأشكالهم أتم وأحسن ؛ لأن كثرة الأغذية في المختبر تختلف في الجسم فضلات رديئة فاسدة ، ينشأ عنها انكساف اللون وذوبه ، وقبح الشكل وترهل الجسم . وهو يوضح رأيه ويدعمه بالموازنـة بين حيوان القفر وحيوان الخصب ، بين الغزال والماعز ، والزرافة والبعير ، والمهـاة والبقرة ،

ويقرر أن يبنها بـَوْ نا بعيداً في صفاء أديمها ، وحسن رونقها ، وأشكالها ،
وتتناسب أعضائها ، وحدة مداركها .

لذلك يقرر أن المجموع أصلح للبدن ، وأدعى إلى صفاء العقول وصلاحها ،
وأن الغذاء يشكل المتغذى به ، فالذين يتعاطون لحم الأنعام الضخام ينشتون
ضخاما ، والذين يشربون ألبان الإبل ويأكلون لحومها أصبر على الشدائد
وأقوى احتفالاً الخ (١) .

تعلبيون :

نقف هنا وقفه قصيرة ، ناقش فيها ابن خلدون ، فنؤيده في بعض
ما ذهب إليه ونسراه ، ونخالفه في بعضه ونغايره .

أما تأثير الجو في تلوين البشرة فلا ريب فيه ، وقد يمما فرق الجو بين
ألوان الناس ، فكان منهم الأبيض والأسود والأحر والأصفر . وإن الأسود
الأبيض ليسو دُّ إذا ما أقام ياقليم حار وتعرض للهواجر ، وإن الأسود
لتَنَصَّلْ خُمْتَه قليلاً جداً إذا ما أقام ياقليم معتدل أو بارد ، ولا جرم يظهر
الأثر ويقوى كلما مرت السنون ، و تتبع البنون ، فتنتقل الألوان إلى
الذراري بالوراثة . فالسواد والبياض ، والحرارة والصفرة ، لم تكن ألواناً
طبيعية في الأصول الأولين الذين انحدرت منهم البشرية ، وإنما اكتسبوها
من البيئة الطبيعية ، وصارت بتقادم الزمان صفة وراثية تنحدر من الأصول
إلى الفروع .

وأما أن أجسام البددين أحسن اعتدالاً وقواماً ، وأنهم أصنف ألواناً

من أهل الحضر . فإن هذا موضع نظر . حقيقة إن العذاء قد يكثُر في الحواضر بحيث تَسْخُم به المعد ، ويضخم منه الجسم فيصبح ، لكن ذلك قليل الحدوث . ولن ينكر أحد أن ألوان الحضر أصفر وأجل من ألوان البدو ، وأن البدو كثيرًا ما يكون ذايل اللون ، ذاوي الجسم ، نحيل الجسد ، معروق العظم .

إن الحياة والقوه والنضاره لا تتجلِّي إلا في المعيشة الرَّغْد ، والرزق الْوَفْر ، والخيرات السُّكُّر ، وهى من حظ الحضر لا من حظ البدو .

وأما أن الجوع أصلح للبدن ، وأدعى إلى صفاء العقول ، فذلك رأى صائب ، ولكن إلى حد ، فإن ابن خلدون ييدو لنا في إيمانه بهذه الفكرة مُشَرِّبًاً بما مذاهب المتصوفة ، فهو يعتقد أن في قدرة الإنسان أن يستغنى عن الطعام شيئاً فشيئاً ، حتى لقد صدق أن امرأتين من الجزيرة الخضراء حبسنَا أنفسهما عن الأكل جملة سنوات ^(١) .

أرجح أنه كان متأثراً بأراء المتصوفة الذائعة في عهده ، لأنها تعرّق في تعذيب الجسم وإنكاره ، وتذهب إلى أن الجوع يصفي الأرواح من أدران المادة ، ويعينها على اشتلاف الحقائق . وهو يشير إلى هذا التأثير بقوله : إن من عود نفسه الجوع والاستغناء عن الطعام بالتدريج والرياضة لا يهلك كما يفعل المتصوفة وأهل الرياضات ^(٢) . فإن أراد ابن خلدون من الجوع هذا الجوع المؤقت الذي لا يلذع الأحساء ، ويشعر الجائع أن أحشائه يأكل بعضها بعضاً ، فأنا معه . ومن الذي لا يستشعر من نفسه صفاء الفكر ، وسداد الرأي ، والشوق إلى العمل العقلى ، وانشراح الصدر ، مادام شبه

جائع ؟ فإذا ملأ المعدة أحس بالكسل والشلل ، وعزف عن التفكير المهن اليسير . وإن أراد الجموع الصوفى الذى تهالك فيه المعدة والأمعاء ببعضها على بعض ، فيشعر الجائع أن فى حشائه أنياباً تعوض وتنهى فلسنا معه . وأما أن الغذاء يشكل المتغذى به فصحيح ، إذ أن للأغذية آثاراً في الجسم والعقل والخلق دعت بعض العلماء إلى جعلها مقياساً للحكم على الجماعات والأفراد . وقد دلت التجارب على أن تغيير الأغذية تغيراً خاصاً يحدث تغيراً كبيراً في الأمزجة ، ووجد أن بعض الميول الإجرامية أو العادات المضرة بالمجتمع الناشئة عن بعض الأمزجة علاقة بنوع الطعام الذى يتناوله المجرم . ولحظ بعض الأطباء أن إطعام القتلة المجرمين نوعاً خاصاً من الطعام يخفف من أمزجتهم ، ويلطف من طباعهم . وأن تناول بعض العقاقير والأدوية على استمرار يؤدى إلى تغير محسوس في الأمزجة ، وتقدم في الأخلاق ، وبعد عن الإجرام ^(٤) :

وليس معنى ذلك أن نوافق ابن خلدون على أن الذين يتعاطون ألبان الإبل ولحمها أصبر على الشدائيد ، وأضخم أجساماً من الذين لا يتعاطونها ، لأن المشاهد ينكر ذلك ، فلا يفتقر إلى دفع .

على أن ابن خلدون أغفل بعض آثار الجو في الجسم ، كتأثيره في حجمها وجرتها وسمكتها وطولها وقصرها الخ . فسكان البلاد الباردة كالإسكيمو واللايلاند أقزام ، وسكان المناطق المعتدلة فارعة أجسامهم ، مكتنزة عضلاتهم .

أثرها في العقول والحضارة

يقول إن الأقاليم المعتدلة الثلاثة مهد التفكير ، ومهبط الوحي ، ولم نعرف نبياً مبعوثاً في غيرها ، لأن الله تعالى اختص رسالته أكرم خلقه . وإن هذه الأقاليم مهد العلوم والصناعات ، والافتتان في الملابس والأقواف ، والتنافس في الرفاهة ، وأهلوها يتعاملون بالنقدين النفيسين الذهب والفضة ، وفيهم وشجت أعراق الملك والنبوة وازدهر العلم والفن والصنعة . ويدهب إلى أن سكان الأقاليم البعيدة عن الاعتدال متأخرون في الحضارة ، فهم يسكنون في بيوت من الطين والقصب ، ويقتاتون بالذرة والعشب ، ويلبسون أوراق الشجر يخصفونها عليهم ، أو الجلود ، وأكثربهم عرايا . وهم متواحشون يأكل بعضهم بعضاً كما نقل عن السودان والصقالبة . وهم لا يعرفون نبوة ولا يدينون بشرعية ، إلا من قرب منهم من مناطق الاعتدال ، مثل الخبطة المجاورين لليمن ، فقد أخذوا عنهم النصرانية ، أو مثل أهل مالي وكوكو والتكرور المجاورين للمغرب فقد أخذوا عنهم الإسلام ولا يعرض على هذا القول بوجود اليمن وحضرموت والآحقاف وببلاد الحجاز في الإقليم الأول والثاني ، لأن جزيرة العرب محاطة بالبحار من جهاتها الثلاث نففت الرطوبة بعض حرها ^(١) .

تعليق :

عمم ابن خلدون حكمه السابق ، بفرجه التعميم إلى خطأ تاريخي ، ذلك أنه حسب أن النصرانية قد انتقلت من اليمن إلى الخبطة ، والحقيقة غير ذلك ،

فقد وفدت المسيحية إلى اليمن من الحبشة ومن غيرها ^(٤) ، ووجد أن اليمن — وهي ذات حضارة عظيمة قديمة — وغيرها من بلاد العرب قد أسهمت في ميدان الحضارة ، وهي في المنطقة الأولى والثانية ، فاحتزز ، ونسب إلى البحر المحيط بها من ثلاثة جهات تلطيفاً وتحفيزاً .

على أن نظريته في جملتها صحيحة ، لأن الحضارات بدأت كلها في أقاليم معتدلة ، وعلى ضفاف الأنهار . وما من شك في أن أمميات الحضارات الأولى : مصر وآشور وبابل والصين وشمال الهند ، كلها في المنطقة المعتدلة ، وقد ازدهرت حضارتها على ضفاف النيل ودجلة والفرات والسندي والنهر الأصفر ، ولم تنشأ الحضارات في هذه البيئات المتباينة إلا بعوامل يسرّتها البيئة .

ذلك أن بروادة الجو في الأقاليم الشهالية أبعدت الإنسان عن الحصول على غذائه ، وعن التجربة والبحث لإبداع حضارة .

ولأن الأقاليم الحارة الجنوبيّة زاخرة بالحيوانات الضواري ، وموبوءة بأمراض شتى تفتّك بالإنسان والحيوان ، فلا سبيل إلى التفكير وإنشاء حضارة .

لهذا نشأت الحضارات في المناطق المعتدلة أولاً ، ثم تخطّتها إلى ما يجاورها من الأقاليم الباردة . فازدهرت الحضارة في مصر والشام والعراق والصين

١٢٦ History of the Arabs, p. 67. by Hitti. (١)
جرجي زيدان . والكامل لابن الأثير ١٤٩ / ١ وسيرة ابن هشام ٣٠ / ١ و The Back ground of Islam. P. 112. Philby
• ١٥٥/٧

وشمالي الهند ، ثم في بلاد اليونان وإيطاليا ، ثم فيها يصاوبهما شمالاً .

وما يعزز ذلك في العصر الحديث أن الأوروبيين كشفوا عن أمريكا في القرن الخامس عشر ، واستعمروا بها ، وانشوا في أنحائها ، ونحن نعلم أنَّ الأميركيتين تحيطان بخط الاستواء ، وأنَّ فيما أنواع المناخ والجواء . ولتكن نجد أنَّ الحضارة والنشاط والإنتاج والنبوغ مخصوصة في المناطق الباردة من أمريكا ، تتميز بها الولايات المتحدة وجنوب كندا ، ونجد أنَّ سكان الأقاليم الاستوائية من سلالة الأوروبيين متخلقون في تفكيرهم وصناعتهم وحضارتهم ، وضعاف الأجسام والأخلاق . وما ذلك إلا من تأثير الجو من ناحية ، وانتشار الأمراض الطفifieة من ناحية .

على أن التجارب أثبتت أنَّ الجو المعتدل والهواء اللطيف المنعش ينبهان أعصاب الحس ، وينشطان الدورة الدموية ، ويساعدان على الهضم والامتصاص ، ويحفزان إلى العمل والإنتاج .

أما الجو الحار الرطب فإنه يبعث على الخمول الجسمى والذهنى ، لأنَّ حرارة الجو وحرارة الجسم تقترنان الأعضاء وتختدران الأعصاب .

لهذا كان ابن خلدون على بعض الحق حينما عزا إلى الأقاليم الثلاثة أنها مهد الحضارة . وجائب الحق في اعتقاده أنَّ الحضارة لا تنشأ إلا في هذه الأقاليم . وحسبنا الآن أنَّ نكتفى برد عاجل على ما ذهب إليه مر جنین الرد الكامل إلى التعليق العام ، فنقول إنَّ التفكير والترقى والتقدم من آثار الاجتماع في أي إقليم صالح لبعث الحضارة ، سواءً كان من الأقاليم الثلاثة أم من غيرها ، لأنَّ العلوم والصناعات تكثير وتجدد حيث يطمئن الناس على حياتهم وعلى أرزاقهم ، ولأنَّ العقل يبتكر ويفكر ويثمر حيث المجال

ميسّر للاطلاع والابداع والمران . وليس — أدل على ذلك من — أن الحضارة الحديثة تزعّمها شعوب لا تقيم في المناطق الثلاث كارأى ابن خلدون، لأنها خارجة على خط ٤٧ درجة شمالاً ، كفرنسا وألمانيا والسويد وإنجلترا .

أثرها في الأخلاق

١ — يقول إن الفرح والسرور ناشيء من انتشار الروح الحيواني وتفشيه في الجسم ، وإن الحزن ناشيء من انقباضه وتكاثفه . ثم يقول إن الحرارة تفتشي الهواء والبخار ، وتزيد مقداره . لهذا يحس السكران بالفرح لأنّه يحس بالحرارة التي تبعثها سورة الحزن في جسمه ، فيتشي روحه الحيواني ، ويفرح ، وكذلك نجد الذين يستحمون في الحمامات ، فهم إذا تنفسوا في هوائهما ، واتصلت حرارة الهواء بأرواحهم شعروا بالسخونة ، فحدث لهم فرح ، وربما انبعث الكثير منهم إلى الغناء الناشيء عن المسرة .

ويبني على ذلك أن سكان الإقليم الحار أسرع إلى الفرح والسرور من سكان الأقاليم المعتدلة ، وأكثر انبساطاً ، وأقرب إلى الطيش ، ولما كان السودانيون ساكنين في الإقليم الحار ، واستولى الحر على أمزاجهم ، وفي أصل تكوينهم، كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقليلهم، ف تكون أرواحهم بالقياس إلى أرواح أهل الإقليم الرابع أشد حراً ، ف تكون أكثر تفشيًّا ، ف تكون أسرع فرحاً وسروراً ، وأكثر انبساطاً ، ويبحي الطيش على أثر هذه ،

وأحق بهؤلاء سكان الشّطآن ، لأن هواءهم حار من أخيرة البحر .

واستشهد على رأيه بأهل مصر ، فقال : « واعتبر ذلك أيضاً بأهل مصر فإنها في مثل عرض البلاد الجزرية أو قرية منها ، حيث غالب الفرح عليهم ، والخفة والغفلة عن العواقب ، حتى إنهم لا يدخلون أقوات سنتهم ولا شهرهم ، وعامة ما كثيرون من أسواقهم » .

وقال إن فاس متوجلة في التلول الباردة ، لذلك فإن أهلها ^{مُفْزِطون} في نظر العواقب ، حتى إن الرجل يدخل قوت سنتين .

وأرجع الأخلاق إلى الجو وحده ، وذكر أن المسعودي حاول أن يعلم لغة السودان وطيشهم وشيوخ الطرف فيهم ، فلم يأت بشيء أكثر من أنه نقل عن جالينوس والكتندي أن ذلك لضعف أدمغتهم ، وما نشأ عنه من ضعف عقولهم ، وعقب على ذلك بقوله : « وهذا كلام لا يحصل له ، ولا برهان فيه » .

٢ - وقرر أن أخلاق البدو أسمى وأبل من أخلاق الحضر ، لأنها لم تدنس بعادة سيئة أو مشاهدة مذمومة مما يقع في المدن والقرى ، ثم لأنهم يعتمدون على نفوسهم في حفظ حياتهم ، مدفوعين بتفرقهم في القفار ، وتفردهم عن المجتمع ، وانقطاع الشرطة عنهم ، لا سور يحجز الأعداء دونهم ، ولا جدار يطمئنهم على سلامتهم ، وإنما تخفيهم أسلحتهم ، وتقسيهم يقطفهم « فهم دائماً يحملون السلاح ، ويتفقون عن كل جانب ، ويتجاذبون عن المجموع إلا غراراً ، في المجالس ، وعلى الرحال ، وفوق الأقارب . ويتو Jason للنبات والهبيعات ، ويترددون في القفر والبيداء ، مُدَلِّين بآياتهم واثقين بأنفسهم ، قد صار لهم الأساس خلقاً ، والشجاعة سجية ، أما أهل

الحضر فإنهم منكبون على الملاذ ، والترف ، ومقبولون على الدنيا ، وعاكفون على الشهوات ، حتى لقد تعرّوا من الخشمة . ثم إنهم يخضعون دائمًا لذى سلطة ، وكثيراً ما يكون جباراً مستبدًا ، يكسر من بأسهم . وكثيراً ما يعاقب على الجرائم ، وقبول العقاب مذلة ومذهب للباس . وحتى الأحكام التأديبية التعليمية التي يؤخذ بها الصبي من صغره تُريه على الزهبة والمخافة . ويستدرك على ذلك بأن الصحابة قد خضعوا لحكم الشرع ولم ينقص بأسهم؛ لأنهم خضعوا لوازع نفسي لا لأنديب تعليمي أو قسرى ، والأحكام الشرعية مبنية على الوازع الديني الذاتي لا على الوازع الخارجي السلطاني^(١)

٣ – ويقرر أن البدو قد تعودوا الجموع ، وعزفوا عن اللذات ، وأنهم أعبد الله وأخشى من الحضر أهل الخصب والترف ، لأن من آثار الحضارة الافتتان في الرفاهة أو الكلف بالنعيم ، والتألق في جميع المرافق ، وينشاً عن ذلك نَهَمْ إلى اللذات ، وخضوع للشهوات ، وإسراف في النفقات وعصيان الله .

٤ – وإذا عزا إلى البيئة الطبيعية هذه الآثار فقد اشترط في المدن شرطين :

أما الأول فيدور حول الوقاية من الأضرار ، بأن تُسُور ، وتُنْخَط في مكان منيع كتل أو جزيرة ، ليصعب على العدو أن ينالها ، ولتبعد عنها المناقع والمروج المتغترة ، والمياه الرواكد ، فلا يحمل الهواء جرائم الأمراض إلى الإنسان والحيوان من ميادة الماء الآسن .

وأما الثاني فيكفل احتلال المنافع ، وذلك بأن تكون المدينة على نهر

أو قرية من عين ثُرة ، طيبة المرعى للسائمة ، دانية المزارع ، وذلك كله لتوفير الراحة لسكانها ، وتسهيل حصولهم على حاجاتهم ، فيرتقى العمران ^(١).

تعابير

١ - لا نصائح ابن خلدون على تعليله لفرح والحزن والطيش والحلم ، لأنّه يقول إن الحرارة تسرى في الروح ، وهذا كلام عام ، لا يقره العلم . وأقرب منه إلى الصحة قول منتسكيو في كتابه روح القوانين : إن الهواء البارد يقبض أطراف الأنسجة الخارجية ، فيزداد نشاطها ، ويساعد على درجوع الدم منها إلى القلب ، ويضعف تمدد هذه الأنسجة ، ويزيدها قوة . أما الهواء الحار فإنه يرخي أطرافها ويمدها ، فتضعف قوتها ونشاطها ، ^(٢) فهو يرى أن للهواء الحار أثراً غير الذي رأه ابن خلدون ، يرى أنه يمدد الأنسجة وينتشرها بالدم ، على حين رأى ابن خلدون أنه ينشر في الجسم الروح الحيواني .

ثم يقول منتسكيو « تنبه أطراف الأعصاب في البلاد الحارة ، لأن أنسجة الجلد تمدد ، فتحملها الأمور التافهة على أشد العمل . أما في البلاد الباردة فإن أنسجة الجلد تنقبض وتنكمش حلياتها ، وتبقى شعب الأطراف الصغيرة للأعصاب مشلوة إلى حد ما ، فلا يصل إلا حساس إلى المخ إلا إذا كان قوياً جداً ، وصادراً من جميع الأعصاب . ولكن الخيال والذوق والشعور والنشاط تتوقف على عدد لانهاية له من الإحساسات الصغيرة » ^(٣).

(١) المقدمة ٢٩١ - ٢٩٣

(٢) De l'Esprit Des lois. P. 389

(٣) الفصل السابق

فيعدل للنفحة في الأقاليم الحارة ، وللرذاذة في الأقاليم الباردة تعليلا
مقبولاً معقولاً .

وقد استدل ابن خلدون على نظريته بالرجل الذي يسخن روحه
الحيوانى في الحمام فيغنى وينتشرى ، واستدل منتسكىو بمثل آخر هو الرجل
الذى تشتد عليه الحرارة بخامة ، فترتخى أنسجة جسمه ، فيضيق صدره ،
وتکاد تختنق أنفاسه .

٢ - ونحن مع ابن خلدون في أن البدو أئق أخلاقاً من الحضر ، وإن
كانت حياة البايدية المقرفة الضنك باعثاً على السلب والنهب والقتل والتلصص
والترصد . ولكن هذه ينابيع الفتوة والرجولة والشجاعة .

وهو على الحق أيضاً في أن حياة الحضر فاسدة ، لأنها تضطر الناس إلى
المغالبة في الرزق ، والمجاهدة في جمع المال ، سداً للحاجات واستكمالاً للرفاه ،
فيكثر التحاسد والتعادى والغش ، والتحايل على المال من كل وجه . ثم إن
الحضر سراع إلى الكذب ، والخداع في الآيمان ، وأبعد عن الاحتشام
وأقرب إلى الفسق واستباحة ما يأبه الدين والخلق الكريم .

وهم أيضاً أهيبُ من البدو ، وأجزع وأهملع .

وعلى الجملة فإن الحضارنة تجني على الأخلاق ، بقدر ما ترهف العقول .
أما البايدية فأهلها يقنعون بما نالوا ، ولا يطمعون في رفاهة أو تأنيق ،
وهم مقتضدون في لذاتهم وشهواتهم .

وليس أدل على ذلك من أن العالم في القرن العشرين قد بلغ ذروة
الحضارنة والتفكير ، ولكنه كان يصعد إلى هذه الذروة ويستخفف من بعض
فضائله ، حتى لنجد رذائل البدوى من غارة ونهب صغارى بالقياس إلى فطائع

الحضري المعاصر . فالسلب في الbadية صار في الحاضرة فتحا واستعماراً وإفساداً للضمائر والأخلاق ، والقتل بالسيف والرمح والنبل استحال في الحاضرة قتلاً بالمدفع والقنبلة ، وجرائم الامراض ، وأخيراً بالقنبلة الذرية والهيدروجينية .

ولست أغلو إذ أقرر أن رذائل الbadية قائمة كلها في الحاضرة في ثوبها الحقيق أو زيها المستعار . بينما يتصرف البدوي بفضائل لا يتصرف بها الحضري ، وإذا تحلى ببعضها أو بها كلها فإنه لا يُشرّبها كما يُشرّبها البدوي ، كالشجاعة والكرم والغيرة على النساء ، وحماية الجار ، وإغاثة اللہيف ، ونجد المستصرخ ، والشتم والعزة ، والثقة بالله .. وكم في الحاضرة من مستجد لا يليبي ، ومنتصف لا يتعان ، ومنكر لا يقاوم ، وعرض مثلوم لا يراق على جوانبه دم .

٣ - كسر ابن خلدون بحثه على آثار البيئة في الجسم والعقول والحضارات ، ولم يشر إلى أثرها في الخيال وفي الأدب . وهي لاشك النبوع الذي يستقى منه الأدباء معانيهم وأخيالهم وكثيراً من موضوعاتهم . والأمثلة كثيرة من أدباء أثرت بيئاتهم في خيالهم وأفكارهم وأعراضهم وحياتهم .

فالشعر العربي في الجاهلية رجع قوى للبيئة البدوية ، ومصور صادق لحياة العرب ، والشعر العباسى والأندلسى صدى للبيئة وللحياة إلى حد بعيد . فذو الرمة مثلاً شاعر كلف بالbadية ، مفتون في استيحاها وتصويرها والحديث عنها .

وابن خفاجة الشاعر الأندلسى كان يخرج إلى الفضاء ليسمع خرير المياه

ويستمتع بمشاهد الطبيعة ، من حيث ينسجم ، أو برق يومض ، أو جدول يترفق ، وقد أثر هذا في خياله وشعره أيمًا تأثير .

وكثير من كتبوا عن شكسبير عزوا نبوغه إلى نشأته الأولى على ضفاف نهر (الأون) الجميل ووادي الخصيب . حيث الشجر الملتئف ، والزرع النضير ، وغاية (أرдан) الساحرة .

ولقد بلغ من تأثيره بهذه المجالى الرائعة أنه لم ينسها إذ نزح من ستراتفورد ، بل ذكرها وصورها ، وجلاها واستوحها في قصته (كاثحب وترضى) .

وأوليفر جولد سميث كان يحب لشوى مسقط رأسه ومدرج شبابه ، فلما أقام بلندن ظل يذكر الطاحون والمجدول والكنيسة ، ومشاهد لشوى ، وشاد بها في قصته (الابن) . وواشنطن إرفنج الكاتب الرحالة ينسب إلى نشأته على نهر أوتسون كل شيء فيقول : «إن ما كسبه طبعى مختلف العناصر من الخير والتهدى يصح أن أرجعه إلى محبتى لهذا النهر فى صغرى ، فقد كنت فى الصبا أكسوه بعض الخصائص النفسية ، وأعتقد أن له روحًا يقوم بها ، وأعجب بما فى طبعه من الحرية والشجاعة والصدق والاستقامة ، لأنه ليس من الأنهار التى تبسم صفحاتها عن خداع . وتضمير الشر بما تحتها من شعاب مهلكة وصخور غدارة . . . وكانت أتخيل نوعاً من المجد فى استقامته وسكينته ، . . .» .

على أنا نعلم أن الناس مختلفون في ميولهم ، وأمزاجتهم ، وتقديرهم للأشياء ، وكثيراً ما يتالم شخص مما ينتهج به آخر . لكنهم جميعاً خاضعون لتأثير البيئة الطبيعية على درجات متفاوتة .

٤ - وإذا كان ابن خلدون قد عزا إلى الحرارة نشر الروح الحيواني في الجسم ، فتأخذه نشوة وخفة وطرب أو تهور ونفق ، فما رأيه في الإسكيمو - وهم يقطنون أبعد بقاع العالم - وإسراعهم إلى الطرب ، وخفتهم إلى المرح ؟

٥ - ومن الذي يوافقه على رأيه الجائز في المصريين ؟ لقد ذهب إلى أن المصري سادر النظر عن العواقب ، طاش ، لا يدخل فوت شهر في بيته . والحق إن المصري ليس أسرع انفعالا من الفرنسي أو الإيطالي ، وفرنسا وإيطاليا في إقليم لم ينسب إليه ابن خلدون خفة ولا نفقا . والحق إن المصري حريص على ادخار قوته ، ويقاد يكون الادخار إعادة متصلة عامة في مصر .

وإذا كان ابن خلدون قد قسا على المصريين بهذه القسوة ، فإنه قد كتب ذلك قبل أن يهدى إلى مصر وينتخب أحواها ، ولعله غيره في نسخة لم تصل إلينا ، أو لعله أبقاءه ، لأن حياته في مصر كانت شانكة ، فلم يشعر نحو المصريين بحب .

على أن تلميذه المقريزى قد حاكاه في قسوته ، إذ نسب إلى البيئة المصرية بعث الجن والضعف والاستسلام ، واستدل على ذلك بخلو مصر من الأسود . كأن الأسود إذا وجدت في بلد ألتقت في نفوس أهلية من شجاعتها ، وأن كل وطن لا آساد فيه مقر للجن والملع .

يقول : « هواء مصر ومؤها رديثان ، وجوها كثير التقلب ، وكل ما يتولد بأرض مصر من الحيوان والنبات مشابه لما عليه مصر في سخافة الأبدان ، وضعف القوى ، وكثرة التغير ، وسرعة الوقع في الأمراض .

والمصريون قليلو الصبر والجلد ، تغلب عليهم الدعة والجبن والقنوط والشح والخوف والحسد والنيمة والكذب . . . ومن أجل ذلك لا تسكتها الأسود ، وإذا دخلتها ذلت ولم تتناسل . وكلابها أقل جرأة من كلاب غيرها^(١) .

ومن أسف أن هذه الدعاوى تسللت إلى بعض المصريين قبّطت عزائمهم وجنت على ثقتهم في أنفسهم .

ولا شك أن المصري شجاع ، وقد سجل جرأته وبسالته في مواطن شتى ، في عهد صلاح الدين و محمد على ، بله في عهود الفراعنة . ونهضة مصر الأخيرة تدحض هذه الدعاوى ، فقد تفوق المصريون في العلوم والفنون والصناعات ، ومارسوا أعمالاً جساماً تتطلب حصافة فكر وسداد رأى وبعد نظر .

تعليق عام على آرائه

في البيئة الطبيعية

١ - منذ عصر بعيد أدرك المفكرون العلاقة بين المناخ والأخلاق ، فلم يكن ابن خلدون ولا منتسكيو أول من أدرك هذه العلاقة . ذلك أن كثيراً من المفكرين سبقوهما ، مثل (برمنيدس) و (امبودوكليس) و (جالينوس) و (بقراط) ، وقد اقتفي بقراط رأى امبودوكليس في أن اختلاط العناصر الأربع : الهواء والماء والنار والتراب ، على نظام خاص ينتج كائناً ذا صفات خاصة ، وزاد عليه أن الأجسام تتشكل وتتصف بصفات

أربع هي البرودة والحرارة والرطوبة والجفاف ، وعن هذه الصفات مثني
مثني تنشأ السوائل الأربع . وهذه السوائل تتأثر بالخداء وبالجو . وليس
تأثير الجو فيها مقصوراً على اختلاف أقاليمها ، بل إنه يتغير في الإقليم
الواحد تبعاً لفصول السنة^(١) . ثم لحظ أرسسطو أثر البيئة في نظم المدن
السياسية .

على أن الجاحظ أشار في كتابه الحيوان ، وفي بعض رسائله إلى تأثير
البيئة في جسم الإنسان وفي أخلاقه ، وكذلك أشار ابن سينا في أرجوزته
التي نقل منها ابن خلدون بيتين استشهد بهما في تعليمه لسوداد السودان ،
ولكن هؤلاء وأولئك لم يؤصلوا نظرية ، أو يفصلوا فكرة ، أو يستدجوا
نتائج .

أما ابن خلدون فإنه قد أصل وفصل واستنتج ، وتفهم التاريخ على
ضوء نظريته في البيئة الطبيعية وفي البيئة الاجتماعية ، فهو إذا صاحب النظرية
ومنقوع الفكرة .

ولن كان قد وقف قسطاً عظيماً من مقدمته على آثار البيئة الطبيعية في
الجسم والعقل والخلق ونظم المجتمع وآرائه وعاداته لقد وقف من بعده
العلامة منتسيكيو قسطاً عظيماً من كتابه (روح القوانين) ليبيان هذا التأثير ،
مثل (تأثير الموقع الجغرافي في القوانين) و (تأثير الجو الجغرافي في بلاد
الشرق في الدين والعادات) و (تأثير الجو في نظام الحكومات الملكية)
و (أثر جو إنجلترا في نفسيات سكانها) و (علاقة الجو بنظام الرق)

و (علاقة التربة بمدينة السكان) و (تأثير طبيعة الأرض في القانون المدنى) ^(١) الخ .

٢ - وإذا كان ابن خلدون ومنتسكي قد أصلًا النظرية وفصلاً القول ، فإنها نسباً إلى البيئة الطبيعية أكثر مما لها من آثار ، فهى في رأيهما التي تقدر مستقبل الفرد من النواحي الجسمية والعقلية والخلقية ، فينفذ ما قدرت ، وتدبر حالة المجتمع من الناحية الاقتصادية والسياسية فيما قدمت به . ولكن في هذا التقدير للبيئة الطبيعية سخاماً ، وإغفالاً للمؤثرات الأخرى ، ولجهد الإنسان نفسه .

فليست البيئة الطبيعية إلا أحد المؤثرات في حياة الفرد والجماعة ، فالأسرة والعلمون والمجتمع والعلوم والأديان ، والبيئة الاجتماعية بنظمها الاقتصادية والسياسية ، والوراثة والميول ، كل هذه مؤثرات في حياة الفرد وفي حياة المجتمع .

ثم إن الأفراد والجماعات كثيراً ما يتذرون بالعلم والصناعة والحيلة والتجربة فيقاومون البيئة ، ويختضعونها ، ويصرّفونها كما يشاءون ، وبذلك يتحللون من تأثيرها ، ويؤثرون فيها ، لأن بقى الناس أنفسهم من الحر ومن البرد بوسائل شتى ، أو ينبعُوا في الأرض المجدبة مالذ وطاب من الحب والفاكهه . ونحن نرى في العصر الحاضر أن وسائل العلم والاختراع تساعدهم مساعدة على مقاومة البيئة ونقض أحكامها ، ففي الجزيرة العربية مثلًا سيارات وطيارات وثلاجات ومراوح ومكيفات للهواء ، وهذه وغيرها من جنود التغلب على البيئة أو مقاومتها وتخفيض تأثيرها

والإنسان الراقى مازال يخضع البيئة ويشكلها بما يلائمه ، فالأوروبى الذى يقطن فى المناطق الحارة ينتقى مسكنه على جبل أو تل ليعيش فى جو الطلق ، والإنسان الذى يقيم فى الصحراء يضرب حوله نطاقا من المزرع والشجر . وكثيراً ما قاوم الناس الجو والزروع والحيوان والبحر والجبل والصحراء والنهر ، فاتخذوا من الريح والبخار والماء قوى ، وهم يحاولون الآن أن يتذبذبوا من الشمس ، وأن يختزنوا حرارتها ، وهم يكتسحون بعض الغابات ويزرعون أماكنها كما حدث في غربى أوروبا وفي كندا وشرق الولايات المتحدة .

والإنسان يغالب البحر الطاغى على اليابس ، فيجفف البحيرات والمناقع ، ويتحدى منها مزارع ، كما حدث في بحيرة لنكولن في شرق إنجلترا ، وفي شواطئ نيوزيلندا ، وفي الفيوم ، وكما سيحدث في بحيرة مريوط وأدكوا والمزلة والبرلس .

ولقد صدق المؤيدى إذ قال في كتابه عيسى بن هشام يصف الغربيين ، أهل الغرب يطوفون البر والبحر ، ويقطعون الحزن والوعر ، ويطيرون في السماء ، ويسدون على الماء ، ويخرقون الجبال ، وينسفون التلال ، ويقلبون الآكام وهادا ، ويسلطون الربا مهادا ، ويحيلون القفار بخارا ، ويحيلون البحار بخارا ، ويحمدون الهواء ، وينبتون الحصبة ، ويستحدثون الأنواء ، فكأنهم جن سليمان ، في هذا الزمان ،^(١) .

٣ - وقد اختلف ابن خلدون ومونتسكيو في النتائج التي انتهيا إليها ، وخالف أرسطو فيما كان قد تهدى إليه . وهذا دليل على أن البيئة الطبيعية

(١) حديث عيسى بن هشام

ليست كل شيء . فأرسطو كان يرى أن الشعب اليوناني هو أستاذ الحضارة والعلم ، وأن العالم كله مدین له ، وأن سكان أوروبا شجعان جداً ولكنهم غير أذكياء ، وأن الشعوب الآسيوية مفرطة الذكاء ولكن تعوزها الشجاعة . أما الشعب اليوناني فإنه بين آسيا وأوروبا الغربية فهو يشغل الوسط ^(١) ، ولذلك يتصرف بالذكاء والشجاعة معاً .

وابن خلدون يرى أن سكان العراق والشام ومصر هم المتفوقون على العالم ؛ لأن بيتهم خير البيئات ، كما سبق .
ومونتسكيو يرى في الأمم الشمالية المثل الأعلى .

فكل من الثلاثة متاثر بعصره وبأمته ، ينظر إليها راقية رائدة ، فينسب رقيها إلى البيئة الطبيعية ، وينسى أن الحضارة الإنسانية دُولةٌ بين الناس . فقد سبقت الحضارة المصرية الفرعونية والحضارة الأشورية والبابلية حضارة اليونان ، وسبقت الحضارة العربية حضارة أوروبا الحديثة وأثرت فيها . إذا فليست البيئة الطبيعية هي الخلاقة للحضارات كما أشار أرسطو ، وكما فعل ابن خلدون ، وكما زاد التفصيل مونتسكيو .

٤ - وكثير من المحدثين لا ينسبون إلى البيئة الطبيعية كل الآثار ، ويعزون تباين الناس في أخلاقهم وأمزاجتهم إلى عوامل أخرى . فمن المحدثين من ذهب إلى أن الأخلاق والأمزاجة ناشئة من تغيرات جسمية تؤثر في المخ والمجموع العصبي ، وعن تأثيرها تنتج مظاهر الشعور مختلفة في الأفراد كاختلاف هذه التغيرات .

(١) السياسة . المكتاب الرابع الفصل السادس وفلسفة ابن خلدون الاجتماعية

ومنهم من أرجعها إلى آثار السوائل التي تفرزها الغدد الصماء فتختلط بالدم ، وتنبعث إلى الجسم كله ، فتشسلطه أو تخمدده ، وتهدي "العصب أو تثيره ، وأولى هذه الغدد الغدة الدرقية .

وقلة من المحدثين رأوا رأى القدامي أن المناخ تأثيراً كبيراً في الأخلاق ، متأثرين بما يشهدون من تباين الأخلاق في الأقاليم ، زاعمين أن من ينتقل من مناخ إلى آخر يكسب مزاجاً غير مزاجه الأول . لكن هذا رأى مردود ، لأن التغير ناشيء من سبب آخر كتبديل الحالة الصحية ، أو التقدم في السن .

وقد ذهب (Rudolf Herman Lotze) الفيلسوف الألماني إلى أن للسن أثراً عظيماً في المزاج ، فكل مرحلة من مراحل العمر مزاجها ، للطفولة مزاج له خصائصه ، وللشباب آخر له ظواهره ، وللرجلة مزاج له ميزاته ، وللشيخوخة مزاج له سماته .

والحق إنَّه من المستدرِّ أن نخضع التباين في الأخلاق والأمزجة إلى مؤثر واحد . ومن الخطأ أن نسم شخصاً بأنه ذو خلق ثابت أو مزاج موحد ، بينما هو لا يستقر على حال ، يثور آنا ويهدأ آنا ، يتغامل تارة ويتشامم تارة ، يغضب حيناً ويحلم حيناً . لذلك يقول الأستاذ (Thouless) : لا شك أنه من الضروري أن نعدل آراء القدماء في أوصاف الأمزجة ، لكنَّا نعلم أن الشخص الواحد قد تظهر عليه آثار أمزجة مختلفة في أوقات متعددة .

ويقول الأستاذ (Macken John Maccunn) : إذا حللنا المزاج وجدناه مؤلفاً من عناصر متعددة ، وإننا لنصل إذا حاولنا أن نرجع المزاج إلى

عنصر واحد من كياننا العقلي أو الجسми دون غيره .

ويقول الأستاذ (مكدو جل McDougall) نستطيع أن نعرف المزاج بأنه مجموعة الآثار التي تحدثها في الحياة العقلية التغيرات الغذائية والكميائية التي تحدث في أنسجة الجسم باستمرار . . . والمزاج كرأى القدماء يرجع على الأخص إلى التكوين الجسми ، ولكن هناك عوامل أخرى أيضاً ،^(١).

هـ - لن ننسب إلى الجو وحده تباين الأخلاق والأمزجة ، غافلين عن الحال الجسمية من صحة أو مرض ، فإن سوء الهضم ، ومرض النقرس ، ومرض السكر مثلاً تشير الغضب . ثم لن نغفل عن تأثير الإفراز الداخلي وتدرج السن ونوع الغذا .

ونزيد أن نعلم الحقيقة في آراء الذين ينسبون إلى البيئة الطبيعية هذه الآثار الخطيرة ، ونعرف مقدار ما فيها من صواب ، ولنا أن نشك فيها أول الأمر ، لأن القائلين بها مختلفون في تطبيقها ، متاثرون بما رأوا في عهودهم . فلقد اتهم أرسطو شعور أوروبي بالغماء ، وأضاف على شعوب آسيا الذكاء ، وأضاف إلى الأولين الجرأة والبسالة ، وسلبهما الآخرين ، ثم نسب إلى شعبه اليوناني الفضليتين معاً : الذكاء والشجاعة .

وابن خلدون رأى الحضارة في عصره ومن قبله قد أبینت في الشام والعراق ، فجعل الإقليم الرابع مثله الأعلى .

ومنتسكيو برهنه حضارة الأمم الشهالية فأعتقدها مثله الأعلى .

إن من حقنا أن نرتّاب في هذه الآراء وأن نبالغ في الارتياح ، ماداموا هم أنفسهم قد تباينوا في نشدان المثل الأعلى .

(١) في علم النفس ٣٢٩/٣ .

وبنـنـنـ نـعـلـمـ أنـ آخرـ درـجـةـ فـيـ نـطـاقـ الإـقـلـيمـ الرـابـعـ — موـطـنـ الـحـضـارـةـ عـنـدـ ابنـ خـلـدونـ — هـىـ الدـرـجـةـ السـابـعـةـ وـالـأـرـبـاعـونـ شـمـالـاـ ، وـلـكـنـاـ بـنـجـدـ فـرـنـسـاـ تـبـدـأـ مـنـ الـخـامـسـةـ وـالـأـرـبـاعـينـ تـقـرـيـباـ ، وـأـنـ شـمـالـيـهـاـ وـهـوـ خـارـجـ كـلـهـ عنـ نـطـاقـ ابنـ خـلـدونـ أـرـوـعـ مـدـنـيـةـ مـنـ جـنـوـبـهـاـ .

وـنـجـدـ اـنـجـلـتـرـاـ تـبـدـأـ بـعـدـ نـطـاقـ ابنـ خـلـدونـ . وـهـىـ كـلـهـاـ خـارـجـةـ عـنـهـ . وـمـثـلـهاـ أـلـمـانـيـاـ ، وـالـسـوـيدـ . وـإـذـآـ فـيـ الـحـضـارـةـ تـزـدـهـرـ وـتـنـضـجـ ، وـالـعـقـولـ تـخـصـبـ وـتـنـتـجـ ، وـالـعـلـومـ تـحـيـاـ وـتـبـتـدـعـ ، وـالـصـنـاعـاتـ تـبـتـكـرـ وـتـخـتـرـعـ ، وـالـأـدـبـ يـخـضـلـ وـبـيـزـهـ وـيـشـمـ ، فـيـ أـقـالـيمـ جـرـدـهـاـ ابنـ خـلـدونـ مـنـ مـيـزـاتـ التـرـقـ وـالـنـهـوضـ .

٦ — وـلـيـسـ أـبـلـغـ فـيـ الدـلـالـةـ عـلـىـ أـنـ مـشـلـ آـرـاءـ ابنـ خـلـدونـ وـمـنـتـسـكـيـوـ فـيـ الـبـيـئـةـ الـطـبـيـعـيـةـ وـقـيـةـ مـنـ أـنـ الـعـالـمـ الـحـدـيـثـ لـمـ يـسـلـمـ مـنـ مـذـاهـبـ فـيـ الـبـيـئـةـ وـالـحـضـارـةـ جـائـرـةـ أـيـمـاـ جـورـ . وـرـبـماـ كـانـ أـوـلـ دـاعـيـةـ إـلـىـ هـذـهـ الـفـكـرـةـ يـقـيمـ عـلـيـهـاـ نـظـريـتـهـ فـيـ التـفـرـيقـ وـالـأـجـنـاسـ (ـ ماـكـسـ مـوـلـرـ)ـ اللـغـوـيـ الـأـدـيـبـ الـمـفـلـسـفـ . فـقـدـ اـسـتـشـجـ مـنـ دـرـاسـتـهـ الـلـغـوـيـةـ أـنـ هـنـاكـ أـجـنـاسـاـ سـيـاهـاـ الـهـنـديـةـ الـجـرـمـانـيـةـ ، أـوـ الـأـرـيـةـ ، وـذـهـبـ إـلـىـ أـنـهـاـ كـانـتـ فـيـمـضـيـ جـنـسـاـ وـاحـدـاـ ، وـهـؤـلـاءـ هـمـ الصـفـوـةـ الـمـمـتـازـةـ مـنـ الـبـشـرـ الـذـيـنـ تـمـيـزـوـاـ بـالـتـفـكـيرـ وـالـإـبـدـاعـ وـالـسـيـادـةـ .

وـقـدـ عـاصـرـهـ سـيـاسـيـ فـرـنـسـيـ هوـ الـكـوـنـتـ دـىـ (ـ جـوـيـنـوـ)ـ فـدـعـاـ إـلـىـ نـظـريـةـ الـأـجـنـاسـ ، وـنـشـرـهـاـ سـنـةـ ١٨٥٣ـ . وـمـوجـزـ نـظـريـتـهـ أـنـ الـمـخـلـوقـاتـ كـلـهـاـ تـخـضـعـ لـقـانـونـ طـبـيـعـيـ أـزـلـىـ يـمـيـزـ بـعـضـهـاـ مـنـ بـعـضـ . فـيـ الـحـيـوانـ نـرـىـ الـخـيـولـ الـعـرـبـيـةـ مـثـلاـ أـفـضـلـ مـنـ غـيرـهـاـ ، وـفـيـ النـبـاتـ نـرـىـ الـوـرـدـ الـجـوـرـىـ ذـاـ رـائـحةـ أـزـكـىـ مـنـ غـيرـهـ ، وـفـيـ الـجـمـادـ بـنـجـدـ الـفـوـلـاـذـ أـقـوـىـ وـأـمـنـ ، وـكـذـلـكـ الـإـنـسـانـ ،

فإنما نجد عدد النابغين يكثُر في شعب دون آخر ، والشعب الذي يكثر النابعون فيه شعب ممتاز ، فمن حقه أن يسيطر على غيره .

ثم يخلص بعد ذلك إلى أن الأمم الشعالية ذات البشرة البيضاء سباقه إلى المدنية والرقى ، على أنها ليست كلها سواء ، فالعظمة محصورَة في العنصر الآري وحده ، أما الساميون فلا يمْتازون بشيء ؛ لأنهم أحط من أن يصلوا إلى مستوى العنصر الآري .

ثم غلا (شبرلن) في تعليم هذه البدعة ، وتعصب للجرمانية ، حتى لقد رأى أنه من الحال على غير الجermanي أن ينبع ، وإذا كان قد نبغ أشخاص لا ينبعون إلى الجermanية بحسب صريح فإنه ينبع إليها بعرق خفي .

ومنذ أعوام كانت تتجاذب في ألمانيا وشمال أمريكا صيحات بأن الجنس التيوتوني أو الشعالي أرقى الأجناس ، وأن الحضارة بلغت شأوها في بلاده . وكان من الغلاة في هذا المذهب العلامة النفسي الشهير مكدو جل . ولم ننس بعد أن ألمانيا الهاتلرية كانت مغرقة في تعصبه للجرمانية ، حتى لقد طردت اليهود من بلادها ، وأبغضت الساميين ، وازدررت الشرقيين ، وزعمت أنهم غير جديرين بالحرية والاستقلال ؛ لأنهم في أشد الحاجة إلى الخضوع للشعوب الآرية .

وكان هتلر وأنصاره يدینون بأن أنبيل خصائص الإنسانية أصلية في الجنس الجermanي ، وأن الساميين الشرقيين لم يكن لهم نصيب في ترقية العالم ، وأنهم لن يستطيعوا أن ينهضوا به ، فإذا ما كذبتم نهضة اليابان — وهي أمة شرقية — ادعوا أنها أمّة مقلدة ليست لها سمات خاصة في حضارتها ، فهي تحاكي الغرب ولا تبتكر .

في حين أن عالماً أمريكا هو (اليود ث هنتنجتون) يرى أن أنساب
الجoad للنهوض والابتكار جو بريطانيا واليابان ، وأن الأقاليم الأخرى
تصاح للترقى والنهوض بنسبة شبيهها بهذا الجو .

ولو أن هؤلاء جميعاً أنصفوا الساءلوا أنفسهم : لماذا لا يحدث تغيير البيئة
آثاراً في عقلية المتنقل من إقليم إلى آخر ؟

وإذا كان هذا التغيير يحدث بعد زمان طويلاً فإنه برهان على أن هناك
عوامل أخرى مشفوعة إلى البيئة الطبيعية .

ومن يدرى ماذا يحجب الغيب ؟

فقد ترحل الحضارة من عالمها الحالى إلى إقليم آخر جرده هؤلاء
جميعاً من صفات الترقى والنهوض ، فيظهر عالم يتاثر بما يشهد ، وينسى
أو يتناهى ماضى الأمم ، فيقرر أن مناخ هذا الإقليم أصلح مكان للرقى
والنهوض .

البيئة الاجتماعية وأثارها

البيئة الاجتماعية هي المظاهر التي تؤثر في الفرد والمجتمع بذاته ، أو بقدر الصلة بها . وهذه المظاهر كثيرة ، منها التجارة والصناعة والزراعة والصناعة والعلم والسياسة والدين والأسرة والأخلاق ومظاهر الحضارة عامة .

وقد عرض ابن خلدون بعض مظاهر البيئة الاجتماعية ، وبين آثارها في الأفراد والجماعات ، وآراؤه في هذه البيئة منشورة في موضع شتى

من المقدمة^(١)

أثر الدين

الدين هو الموحى به إلى رسول ، وهو أحد العوامل الكبرى في تأسيس الدولة ونشأت الأمة ، لأن الملك لا يقام إلا بالغلب ، والطلب لا يكون إلا بالعصيّة ، والأهواء المتفقة ، والقلوب المؤتلفة ، والنفوس المخربة ، ولا يتتحقق شيء من هذا إلا بمعونة من الله في إقامة دينه ، قال القولونجاني : ألم ينفق ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله أله

والسر في ذلك ، أن القلوب إذا تداعت إلى الباطل ، ومالت إلى الدنيا كلبت التنافس ، وفسّا الاختلاف . وإذا انصرفت إلى الحق ، ورفضت الملاهي والباطل ، وأقبلت على الله اتحدت وجهتها ، فذهب التنافس ، وقل

المقدمة ٦٩ - ٧٧ ، ١٠٣ ، ١٠٦ - ١٢٣ ، ١٢٣ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ٢٩١ - ٢٩٣

٤٨٧ ، ٣٦٤ ، ٣٦٢ ، ٣٢٤ - ٣١٢ ، ٠٤ - ٣٠٢

الخلاف ، واستمكן التعاون والتساند ، واتسع نطاق الكلمة فعظمت الدولة ،^(١)

ويرى أن الدين يزيد الدولة قوة على قوة العصبية التي لها من عددها ،
ويشهد على ذلك من فتوح العرب .

نعلم بـ .

وهو على الحق في هذا ، فإننا لا نستطيع أن نعلم السبب الحقيقي في فتح المسلمين سراعاً بلاد الفرس والروم ، إن أغلقنا العصبية التي تدعها حماسة الإسلام ، وتستندها خلال الصحراء ، في حين كان الضعف الاجتماعي يقوض هيكل الروم والفرس . حقاً إن الدين هو العمدة القوية في بناء الدولة ، ولكن ليس السبب أن الله يعين عباده على إقامة دينه كما ذهب ابن خلدون . فإن الدليل قد تنشأ وتقوى وهي على غير وسائلها ^{الصلح والدين} وكثير من أمم العالم القديم ، وقد تنشأ دول وقوى وهي ^{غير دينية} وإنما السبب الصحيح أن الدين ضروري في تأسيس الدولة ^{وتقديرها} يؤلف بين القلوب المتنافرة ، ويجمع الأهواء المبعثرة ، ويوحد الأهداف المكثرة ، والإنسان أبداً يتغنى لرأيه ، ويناصر من يشاركه في آرائه وأى رأى أسمى من الدين ؟ اذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء ^{فأنت} بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً .

ولقد ذهب كرام إلى أن ابن خلدون لا يعد الدين سبباً من أسباب الدولة ، وعانياً من عوامل الحضارة ، بل يجعله في المنزلة الثانية ^{والثالثة} التابع ، وهذا غير صحيح ، لأن ابن خلدون يعتبر الدين شرطاً أساسياً

في الحضارة وبناء الدولة كالعصبية^(١). وهو لهذا لا يقر الخلاف بين الفلسفة والدين ، ويحاول التوفيق بينهما كما حاول ابن رشد من قبل . ولأنه يرى الفضائل شرطاً لقيام الدولة ، والدين جماع الفضائل الإلهية المزهدة عن النقص ، ثم إن العصبية المجردة عن الخلال الحميدة عيب في ذوى الأحساب ، فأحرى بها أن تكون أشنع في ذوى السلطان ، والسياسة والحكم ضمان لصالح العباد ، ونيابة عن الله في إعلام كلامه ورعاية عباده ، وذلك كله من الشرع والدين . يقول ابن خلدون « فـنـ حصلت له الغصبية الكفيلة بالقدرة ، وأونست منه خلال الخير المناسبة لتنفيذ أحكام الله في خلقه ، فقد تهيأ للخلافة في العباد ، وكفالة الخلق ، ووطدت فيه الصلاحية لذلك » ، ويقول : « والبشر أقرب الخلال إلى الإنسان إذا أهمل عوائده ، ولم يهذبه الاقداء بالدين » .

على أن ابن خلدون لم ينظر إلى الدين إلا أنه كالعصبية داعمة لقيام الدولة وقوتها ، وأنه تكأة تعتمد عليه الجماعة . ولم يذكر آثار الدين في حياة الأفراد من حيث إنه بضم الجراح الدامية ، ومنار النفوس الضالة ، وسلوى القلوب المحدودة أو المكرودة ، والوازع إلى تهذيب النفس وتطهيرها . إن المؤمن بالله يسمى ياماً فوق المادة ، أو يقرب من ربّه بقدر إيمانه ، وتخضم نفسه إذ يدعوره أن يكون عونه في الخطب الفادح والرزم الشاده ، لأنّه يستمد القوة من ربّ القوة .

والمجتمع المستمسك بدینه مجتمع فاضل سعيد ، وليس قوياً فحسب كما ذهب ابن خلدون ، لأن رقابة القانون وسطوة السلطان واعظ خارجي

يعتمد على القوة ، فاصل لايرى إلا في الجهرة ، أما رقابة الدين فهي ذاتية ، وهي قديرة بصيرة ، تزع بالعاطفة والأمل ، وتعلم الجهر والنحوى .
وربما انصرف ابن خلدون عن بيان آثار الدين عامة ، لأنه كان يتحدث عن الدول وعوامل قيامها وأسباب قوتها ، فأولى جانبها واحدا من الدين عنایته ، لأنه أشد اتصالا بموضوعه .

نظام الحكم

يرى أن الحكم المدين المتساهل يجعل المحكومين مدلين بقوتهم
وحربيتهم وشجاعتهم وضعف وازعم ، والحكم الصارم القائم العنيف يخضد شوكتهم ، ويذهب نجوتهم ، ويكسر منعهم ، فيتكلسون ، لأنهم مضطهدون ، ويتعودون الذل والخنوع ؛ لأنهم يُظلمون فلا ينكرون ، ويهانون فلا يدفعون .

أما الحكم العادل فيخلق في النفوس الطاعة والانقياد ، والمحبة عن رغبة واقتناع .

ويرى أن الحكم بجمعـيـع أنواعـه مضعف للأسـ، ويـستـدلـ عـلـيـ ذـلـكـ بـأنـ طـلـابـ الـعـلـمـ الـذـيـنـ مـارـسـواـ الـجـلوـسـ إـلـىـ الـأـسـاتـذـةـ وـالـاسـتـمـاعـ لـهـمـ ضـعـفـاءـ الشـجـاعـةـ وـالـبـأـسـ ، وـأـنـ الـمـتـحـضـرـينـ قـدـ وـكـلـواـ حـمـاـيـتـهـمـ إـلـىـ الـشـرـطةـ وـالـأـسـوـارـ وـالـحـصـونـ فـقـشـأـ فـيـمـ الـجـبـنـ . أما الـبـدـوـ فـهـمـ بـمـعـزـلـ عـنـ السـلـطـانـ وـأـحـكـامـهـ^(١)

تأملين

وقد جنح هنا أيضا إلى إيشار حياة البداوة على حياة الحضارة ، وحياة

الفطرة والعرف على حياة النظام والتشريع والحكم ، والقضاء والإدارة .
ونرا هنا مضرطرين إلى مخالفته ، لأننا نرى أن الحكم العادل الحازم يسمو
بـ الأخلاق ، ويفرق بالأمم ، ويسوى بين الناس في الفرص ، ويجعل للناس
حقوقاً مرسومة ، وواجبات معلومة . أما حياة البدو فإنها قائمة على أن
الحق للقوة . لهذا يشيع فيها نوع من الفساد والاضطراب والفوضى .

ثم إننا لا نوافقه على أن يجعلوا سلوك الطالب إلى أستادهم يذهب منعهم وباسهم ، لأنهم يعتادون جلسها المواقف والمحبيه (١) ، ولأنهم يهابون أستاذهم ويحبونه ، فإن هذا لا يمنع أن يكون نوابهم شجاعانا حيث تطلب الشجاعة ، وإلا فكيف ينشر التعليم بين الناس ~~بهم~~ ^{بهم} ولكن تعليم بغير معلم يحب ويهاب ؟

كَانَ الْمُلْكُ لِلّٰهِ

يرى - كما رأى الفاربي مدنى بطبعه ، فلن
يقدر على قضاء حاجاته وحده ، فلابد له من التعاون ، والجماعة المتعاونة
تنتج أكثر من الفرد ، سو^ن كثرة ونفع العمل فيها يليها ، أم قامت به دفعة
واحدة كلها ^(٢) . وبعض ما تنتجه الجماعة يكفيها ، وباقيه يرسل إلى الأنصار
الآخرين ، ثم ينفق ثمنه في الترف ^ن وإذا فكثرة السكان من أسباب الثراء
والترف والتألق في المساكن ^ن الملابس واستجاده الآنية ، واتخاذ الخدم
والمراتك .

وإذا كانت هذه الأشياء متشيّع على الترف فإنها ترتج التجارية والصناعة،

(٢) آراء أهل المدينة الفاضلة ٥٣ نشره

Esprit De

المقدمة ١٠٦

فریدریک دیتیرسی Dr. Friedrich Dieterici (٣) المقدمة ٣٥

وتشجع على البيع والشراء ، والأخذ والعطاء ، والعرض والطلب ، وإذا توسيع وسائل الترف أكثر من قبل ، ويتزايد التمن ، ويرتفع أجر العامل والصنائع . إذا فتى كثرة السكان انتعشت الأعمال ، وزاد الكسب ، وارتفع الأجر ، فتشدّ الترف ، فاشتد الغلام وعظمت قيم الأشياء . وإذا كانت كثرة السكان ترفع أسعار وسائل الترف فإليه في الوقت نفسه تنقص أثمان الصناعات ، لأنها موقورة وزائدة على الحاجة .

ويذهب إلى أن ترف المدينة ليس لهم لغتها الأغنية وإنما وحدهم ، بل إن الفقراء يطمحون إلى أن يتوفوا أيضاً ترفاً فاسلياً لهم بغير مما يستدل على ذلك بأن السائلين بفاس أحسن حالاً من السائلين بتلمسان أهلاً وهراً ، ويقول : « ولقد شاهدت بفاس السؤال يسألون أيام الأضاحى أئمان ضحاياهم ، ورأيهم يسألون كثيراً من أحوال الترف ، مثل سؤال اللحم والسمن ، وعلاج الطبخ والملابس والماعون ، ولو سأله سائل مثل هذا بتلمسان أو وهراً لاستنكروه الطاعة وعُنف وُزجر ، . ويقر أن لهم يسمع عن أحوال مصر وشأنها العجب ، وأن كثيراً من فقراء المغرب يزحفون إليها بعية الذئاب ، وما ذلك إلا لأن العمران قد استبحر وعظم بمصر وفاس (١) .

نہج

اتفق موتسكيو مع ابن خلدون في تأثير كثرة السكان وثراهم مجلبة للرف، ورأى أنهم كلما كثروا في مكان تسلط عليهم الكبر والأذلة حتى ليجهل بعضهم بعضاً، ورأى أن كثرةهم تستدعي ارتفاع الأثمان؛ لأن
الداورة على مجشة

الذين يجيدون أعمالهم يرتفعون من قيمتها ، فيحاكيهم في ذلك غيرهم من
الذين لا يجيدون عملهم .

وقرر أن الترف سلم إلى الفجور والتهتك وقلة المبالاة ، وأنه كلما قل في
الأمة زاد كلامها ، وكلما تفشي في أمة آخر أهلوها مصالحهم الذاتية ، وانصرفوا
عن المصالح العامة .

وذهب إلى أن الذين يقنعون بالضروريات هم الذين لا يتغرون إلا
بجد الوطن ^(١) .

على أنه بسط القول في الترف وأسبابه وجراحته ^(٢) .

ويكاد يكون ما ذكره مونتسكيو تفصيلاً وتدعليلاً على ما ذكره
ابن خلدون ، وإذا كان ابن خلدون قد اهتم بآثار كثيرة السكان في الحياة
الاقتصادية ، فقد تحدث عن آثارها في الجسم والعقل والخلق في موضع
آخر هو الحضارة .

محاكاة المغلوب للغالب

قرر أن المغلوب يعتقد البطل فيمن غابه ، فيتشبه به في ملبيه ، ونحلته ،
ويحاكيه في أخلاقه ومعيشته ، ويحاكيه في جميع أحواله . وهو مدفوع إلى
هذا التقليد ، لأن الغالب لقنه أن يعظمه ، وبث في روعه أنه ضعيف
متخلف عن قافلة الحياة ، وأوحى إليه أنه غلبه لأنّه أقوى منه وأصلح للحياة ،
فيجتهد المغلوب في التشبه بغالبه ، ليدركه ويماثله . أو هو مدفوع إلى هذه

المحاكاة ، لأنَّه وَهُم في نفسه الضعف والقصور بسبب الهزيمة والقهر ، وتوهم في غالبه القوة والكمال ، فيجدُ في المحاكاة والنقل والاحتذاء^(١)

تعليق :

وهذا حق كلَّه ، لأنَّا نتمثلُ في أحوال الأمم غالبَةً ومغلوبَةً ، حدِيثة وقديمة . فمثلاً كان العالم في العصور الوسطى يهتمُّ بالعرب ، ويحاكيهم في نظمهم ، ويأثرُ عنهم ثقافتهم وعلومهم وأدابهم ؛ لأنَّ الدولة والقوة كانت لهم . فلما دالت الأيام وصارَ القلب للغرب ^{أَخْذَنَا} نقل عن الغربيين كلَّ شيء ، ونعتقدُ أنَّهم يفوقونا في كلِّ شيء ، حتى إنَّكاد ننسى خصائصنا ، وحاجات ينتتنا وضرورات وراثتنا وماضينا .

ولقد اندفع بعض الشرقيين إلى هذا التقليد العجيب ، مخدوعين بدعوى الاستعمار الباطلة أنَّ الشرقيين عجزٌ جهله ، يجب أن يستظلووا بالغربيين ، ويتعلموا منهم ، ويختضعوا لهم ، ويحاكونهم فيما يستطيعون أن يحاكونهم فيه . ثم مدفعون بما يوحى به الاستعمار ويدفعه من قوة الغرب وتفوقه وتميزه بالعقل الفذة والمهارة في كل ضرب من ضروب الحياة ، لذلك غرق بعض الشرقيين في المحاكاة العميماء ، فاكروا فيما لا يوائم تاريخهم ويشتتهم وجوهم وعاداتهم ودينهem ، بل لقد حاكي بعضهم فيما يقاومه عقلاء الغربيين ، وفيما لم تثبت صلاحيته بعد .

على أنا نضيف إلى تعليل ابن خلدون أنَّ تقليد الضعف القوى غريزة ، فالطفل يقلد أباً وأمه وأستاذه والمتفوق عليه ، والشعوب تحاكي ملوكها في

نظم المعيشة ، لأن الناس على دين ملوكهم ، وكذلك يحاكي المغلوب غالبه مدفوعاً بغيريزة المحاكاة .

وإذا كانت هذه المحاكاة معيبة أحياناً فإنها عظيمة الأثر في رق الفرد والجماعة ، لأن المغلوب يقلد غالبه فيضطربه التقليد إلى اتخاذ الوسائل الكفيلة بأن يقوى ويرقى ، ولو لا هذا التقليد لانبت المتألف وظل منبتاً عن قائلة الحياة الدائمة على سيرها إلى الأمام .

أثر الحضارة في الأخلاق والعقول

١ - لا شك أن العلوم والصناعات تكثير وتجود حيث الحضارة والعمaran^(١) ، لأنها أمور زائدة على المعاش ، وهي اطمأن الناس على أرزاقهم اتجهوا إلى ما وراء الأرزاق من علوم وصناعات . والدليل على ذلك أن بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة والقاهرة لما كثر عمرانها ، وازدهرت حضارتها ماجت بالعلم والعلماء والطلاب ، ثم لما شاخ عمرانها وقل سكانها طويت صحفها وجفت أقلامها .

ويضرب المثل ببصر في عهده « ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر ، لأن عمرانها مستباح ، وحضارتها مستحكة منذ آلاف السنين ، فاستجحكت فيها الصنائع ، ومن جملتها تعلم العلم »^(٢) ، ويرى أن للحضارة عادات ونظمًا وآداباً يلتزمونها ويتوارثونها ، ولا شك أن كل صناعة مرتبة يرجع منها إلى النفس أثر يكسبها عقلًا جديداً تستعد به لقبول صناعة أخرى ، ويتها بها العقل لسرعة الإدراك لل المعارف ،

تعلیم : -

وهذا حق ، لأن العقل يرقى بالتجارب والمخالطة والاطلاع والمران ، ولا شك أن المران يكسب العقل قوة وحياة ، ويفسح المجال للمحاولات والابتكار ، ولا شك أن المخالطة حافز على التنافس والإنتاج ، وأن حياة الحضارة عون على الاستزادة من الثقافة عامّة ، وعون على التعليم المنظم والتعلم منذ الصغر ، وهذا كله لا يكون إلا في المجتمع المتحضر . وفي هذا المجتمع يتميز الإنسان بالبحث النظري والتجريبي ، والإنتاج العلمي ، لأن الحضارة هي البيئة العتيدة للعلوم والصناعات والفنون .

٢ - ويرى أن الحضارة تستدعي الاقتان في الترف ، والكَفَف بالنعم ، والتألق في جميع المرافق ، وأن ذلك يستدعي نهاماً إلى اللذات ، وجوعاً إلى الشهوات ، وإنفاقاً عن سعة . وإذا كانت أثمان الحاجات في المدن أغلى منها في القرى والبوادي فإن الإنفاق في المدينة يصير إسراها ، وقد تعجز موارد الشخص عن تحقيق ما يريد ويشهي فيستدين ، ويكلف نفسه ما لا يطيق ، فُيمْلِق ، ويغلبه الفقر .

وهذه الحياة تجبر الناس على المغالبة في طلب الرزق ، والجالدة في جمع المال ، سداً للحاجات ، وقضاء للهَمَرَب ، وجرياً وراء العادات ، فيكثر التحسد والتعادى والغش والتحايل ، لذلك فإنَّ الحضريين سرّاع إلى الكذب والخنث في الأيمان ، ميالون إلى السرقة والقامار ، بعيدون عن الاحتشام ، موصوفون بالفسق والفحور ، وقلة المبالاة بالخلق والعرف . وإذا كثرت هذه الرذائل في أمة أذن الله بخراها ، وهذا معنى قوله تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ، ففسقوا فيها فحق عليها القول ، فدمّرناها تدميرآ » .

ثم إن الحضري لا يعتمد على نفسه في أكثر حاجاته ، عجزاً أو ترفاً ، وكلاهما ويل . وهو عاجز عن حماية نفسه ؛ لأنه ألف أن تحرسه الحامية ، وهو ضعيف التدين في الغالب ^(١) .

نعلمون :

أسلفت التعليق على هذا الرأى في البيئة الطبيعية ، فلا حاجة إلى تكرير . على أن ابن خلدون لا يفتأى يتعصب لحياة البداءة وينهى بالمتالب على حياة الحضارة .

أثر الفلاحة في الأخلاق

يرى أن الفلاحة أقدم الصناعات ، لأنها مصدر القوت الضروري لحياة الإنسان ، وأنها اختصت بالبدو ، لأنه أقدم من الحضر وسابق عليه ^(٢) .

ويرى أنها صناعة الأذلة المستضعفين ، لذلك لا يحترف بها أحد من أهل الحضر في الغالب ، ولا من المترفين ، ويستدل على مذلة الفلاحين بقوله صلى الله عليه وسلم وقد رأى سكة (حراثاً) بعض دور الانصار : « ما دخلت هذه دار قوم إلا دخلهم الذل » .

ويعلل لذلك بأن الفلاحة تقضي دفع الضرائب لذوى السلطان ، وكفى ذلك مذلة لا تتحملها النفوس الآية ، وأنها تستدعي الاستكناة والمكر والخدعة للخلاص من القهر والاستطالة ^(٣) .

تعلمو، :

ليست الفلاحة أقدم الصناعات ، لأن الإنسان مارس الصيد أولاً ، واقتات بما نبت الأرض ، ثم مارس الزراعة بعد ذلك .

على أن في هذا الرأي مغالاة وحيفا ، فالضرائب تجبي من الصناع والتجار والموظفين كما تجبي من الفلاحين ، والناس جميعاً خاضعون للقانون ، معتمدون على الحكومة في الدفاع والحماية ، معرضون جميعاً لبطش السلطان وهم يتحايلون للنجاة من عدوانه إن كان مستبدآً ظلوماً . فلماذا يقصر ابن خلدون هذه الأمور على الفلاحين ؟ أما الحديث الذي استشهد به فعلى فرض صحته فإنه محمول – كما ذهب البخاري – على الاستكثار من الزراعة وإهمال غيرها .

ولئن كانت الفلاحة من أعمال الضعفاء في بعض الأحيان فإن الصناعة والتجارة والعمل في الحكومة من أعمال الكثير من الضعفاء .

على أن للفلاحة آثاراً لم يذكرها ابن خلدون ، هي القناعة والرضا ، والإخلاص إلى الوطن ، والركود النهفي ، مما يجعل الفلاحين أقصى بمدارج طفو لهم ، وأشبهه في عملهم الزراعي بالسابقين من آبائهم ، فلا هم يحبون المиграة ، ولا هم يجددون في وسائل العمل .

أثر التجارة في العقول والأخلاق

ويرى أن التجارة تجني على الخلق ، لأنها مفتقرة إلى المساومة والكذب والخداع في الإيمان ، وتحتاجة إلى الغش والخيانة .

ويرى أن التاجر مضططر أن يوطد صلته بالحكومة لتعيينه في قضاياه

التي يشكو بها حرفاً ، ولئلا تستولى على متاجره إذا افتقرت إلى المال ، وأنه منهوم إلى الربح ، يتلبس أحياناً من طرق لا يقرها الشرع ، ولا يرضها الخلق ، ولا يطمئن إليها العرف . وهي إلى ذلك كله منقصة للذكاء . ولهذا يتحامها الأشراف وذوو المكانة ، وقد يزاولها بعضهم بوسطائه وعمالة لا بنفسه ^(١) .

تعليق

ليس ابن خلدون بداعاً في هذا الرأي ، فقد قال به منتسكيو بعده بقرون : « يمكننا أن نقول إن قوانين التجارة تحسن الأخلاق للسبب نفسه في أن هذه القوانين تفسد الأخلاق ... ورأينا في البلاد التي غلت الروح التجارية على أهلها أن المضاربة تغشى كل الأعمال الإنسانية وكل الفضائل الخلقية ، وأن أيسر معونة إنسانية تعمل أو تعطى نظير المال » .

ولكن هل تعتبر هذا الرأي صحيحاً ؟

لعله كان خليقاً بالصحة في عهده ، ولعله خليق بالصحة إلى عهد قريب ، فإن كثيراً من ذوي الأقدار في الشرق كانوا يتربون عن الاحتراف بالتجارة ، أما الآن فقد تغير الحال أو قطع في طريق التغيير مراحل .

فالحكومات الآن لا تستولى على مال التجار كما كان يحدث في عصر ابن خلدون ، والحرفاء لا يجدون في أكل مال التجار كما كانوا يجدون ، وليس القضاة وأولو الأمر بحاجة إلى أن يتسلقهم التجار ويكسروا عطفهم لينصفوهم في قضاياهم كما تحدث ابن خلدون عن عصره .

ثُم إن كبار التجار في الشرق والغرب الآن كرام الخلق موفورو المرومة ، وشعار التجارة الحديثة الصدق والأمانة ، حتى إن التجار يتعاملون بالاتهان ، فيشترون سلعاً ببالغ كثرة من المال إلى أجل ، ثُم يفون بوعودهم ، ويسرعون إلى أداء ديونهم .

و قبل عصر ابن خلدون مدح الجاحظ التجار بأنهم أورع الناس ، وأهنتهم عيشاً ، وآمنهم سرّباً ، لأنهم في أفقتيهم كالملاوك على أسرتهم ، يرغب إليهم أهل الحاجات ، لا تتحققهم ذلة في مكاسبهم . وضرب أمثلة على شرفهم من حال قريش ، ومن اشتغال النبي عليه الصلة والسلام بالتجارة . ثُم رد على يدّعى أن التجارة تصرف صاحبها عن العلم والأدب بأن كثيراً من جلة العلماء كانوا تجاراً^(١) .

تعليق عام

غلا ابن خلدون في آثار البيئة الاجتماعية ، لكن غلوه هنا أقل من غلوه في آثار البيئة الطبيعية ، وأخف من غلو كثير من المحدثين الذين ينسبون إلى البيئة الاجتماعية كل شيء ، فيرون أن الفرد مدین لها بغير إرائه وانفعالاته وميوله وقواه الفكرية ومظاهر نزوعه وسلوكيه وأخلاقه ، وأن عوامل التربية الأخرى كاللعبة والوراثة والتقليد ليست إلا جنوداً لهذه البيئة تأتمر بأمرها ، وتنفذ ما قبضت به .

وفي طليعة هؤلاء العلامة الاجتماعي دوركايم Emil Durkheim وتلاميذه . حتى لقد ذهبوا إلى أن ما يسميه الفلسفه بأسس التفكير (تقيد

(١) رسالة مدح التجار ١٥٥ من مجموعة رسائل للجاحظ . نشرها سامي .

المدركات بالزمان والمكان ، عدم اجتماع النقيضين الخ) ليس فطريا في الإنسان بل كسبه الناس كسبا بتأثير البيئة الاجتماعية العامة ، مستدلين بأن كثيرا من الأمم المتوحشة قد زودتهم بيئتهم بنوع من التفكير يسيغ اجتماع النقيضين ، ولا يرون خطأ في أن يكون الشيء هو نفسه وغيره في آن واحد^(١). ولكن الحقيقة أن للبيئة الاجتماعية آثارا عظيمة في العقل والخلق ، وإن كانت وحدها لا تقدر على صوغ الناس ، فمن التجني على عوامل التربية الأخرى كالبيئة الطبيعية واللعب والمحاكاة والوراثة والتعليم أن نخضعها للبيئة الاجتماعية .

تقسيمه للعلوم

كان ابن خلدون أول مؤرخ للعلوم في طراز جامع للحركة العلمية والأدبية في الشرق الإسلامي إلى القرن الثامن الهجري ، فهو عالم بالكتب ، خبير بالعلماء ، متبع تطور الفكر وتشعب جداوله ، بصير بالمنابع والمداول والمساب .

ومازال القسم الذي كتبه في تاريخ العلوم والأدب والصناعات منهل الذين يدرسون تاريخ الفكر الإسلامي ، وقد أسلفت أسماء كثيرة من المؤلفين الذين اعتمدوا على ابن خلدون ونقلوا عنه أسماء الكتب والعلوم والفنون ، ونقلوا عنه أقسامها .

وهو يرى أن العلم ثمرة لحركة الفكر ، وأن الفكر لا ينضج إلا في المجتمع حيث التربين والخلط ، وأن أوضح الفكر ما كان في الحضر ، لأن

البدو والحضر يتلقون في الفهم الذي يدرك مسائل خاصة ، وفي الفهم العادى المتعلق بالمعاملة وتبادل المنافع ، وإن كان الحضر أرق من البدو في ذلك . ثم إن الحضريين يمتازون بالتفكير النظري الذى يربط الأسباب بالأسباب ، ويؤلف الصلات بين الأشياء ، ويستنبط الأفكار العامة التي تقوم عليها العلوم ^(١) .

ويرى أن العلوم ضرورية لتقدم الحضارة ، وأنها ذات أثر عظيم في عقول الناس وأخلاقهم . لهذا خصها ببحث مستفيض في مقدمته ^(٢) . وبوافقه في الاهتمام بالتربيه والتعليم العلامة مونتسكيو في قوله : إن قوانين التربية هي أولى ما تتأثر به من الصغر ، وهي تعدنا لأن نكون وطنيين صالحين في الأسرة وفي الأمة ^(٣) .

وقد قسم العلوم إلى قسمين :

قسم طبيعي يهدي إلى الإنسان بفكره ، وقسم نقلي يأخذه عن وضعه . الأول هو العلوم الحكمية الفلسفية ، وهي التي يمكن أن يعرفها الإنسان من تلقاء نفسه ، ويهدي إليها يادراكه . والثاني هو العلوم النقلية الوضعية المستندة إلى الشرع ، ولا مجال فيها للعقل إلا في الحال الفروع من مسائلها بالأصول . وللعلوم الشرعية علوم أخرى تعين على فهمها كالتفسير والحديث والقراءات والفقه وأصول الفقه والكلام ، وعلوم اللسان العربي من لغة ونحو وبيان وأدب . وهذه العلوم الشرعية يختص بها الإسلام .

أما العلوم العقلية فطبيعة للإنسان المفكر ، وليست من خصائص ملة .

وهي قديمة في النوع الإنساني . وتشتمل على أربعة علوم : المنطق ، والطبيعة ، وما وراء الطبيعة أو الإلهيات ، والتعاليم أى الهندسة ، والأرثماطيق ، والموسيقى ، والهيئة ، ويرتبها ترتيباً تصاعدياً ، فالمنطق أولاً ، والتعاليم بعده (الأرثماطيق . الهندسة . الهيئة . الموسيقى) ثم الطبيعتين ، ثم ما وراء الطبيعة .

ولكل علم من هذه فروع ، فمن فروع الطبيعتين الطب ، ومن فروع العدد الحساب والجبر والمقابلة ، ومن فروع الهيئة الأزياج ، والمنطق يتبعها من هذه العلوم كلها مكانة علوم اللسان من الشرعيات .

والفرق بين العلوم الفلسفية والشرعية أن الأولى نتاج الفكر وحده ، والثانية مصدرها الأصيل هو الوحي . والأولى عرضة للصواب والخطأ ، والثانية معصومة من الزلل والخطل ^(١) . ثم شرع يفصل القول في كل علم .

وقد غض من شأن الفلسفة وأنهى عنها ، وهو يريد الفلسفة التي تبحث في الإلهيات وما وراء المادة أو تذكر الخالق سبحانه ، ويختتم كلامه بقوله ، هذه هي ثمرة هذه الصناعة مع الاطلاع على مذاهب أهل العلم وأراءهم . ومضارعها ما علمت . فليكن الناظر فيها متحرزاً من معاطبيها ، ول يكن نظر من ينظر فيها بعد الامتناع من الشرعيات ، والاطلاع على التفسير والفقه . ولا يكُن أحد عليها وهو خلو من علوم الملة ، فقل أن يسلم لذلك من معاطبيها ^(٢) .

ولأنه لصائب النظرة ؛ لأن دراسة الفلسفة المتصلة بما وراء المادة يجب

(١) المقدمه ٤٠١ ، ٣٦٤

(٢) المقدمه ٤٥٩

أن تُسبَّب بدراسة للدين حتى لا يتفشى الإلحاد والجراوة على نقد الشرع
من لا يعرفون أصول الشرع .

ثم يتحدث عن الصناعات فيقسمها إلى نوعين . ويرى أن نوعها الأول
ضروري للمران ، كالفلاحة والبناء والخياطة والتجارة والحياة ، ونوعها
الثاني شريف كالخط والكتابة والوراقه والغناه والطب ^(١) ثم يفصل القول
في كل نوع .

الطريقة المثلثي في التعليم

يرى أن التعليم لا يشعر إلا إذا تدرج مع عقل التلميذ واستعداده وقدرته
على الفهم .

١ - لهذا يجب أن يكون على ثلات مراحل :

في المرحلة الأولى يلقى الأستاذ على التلميذ أصول المسائل وقواعدها
العامة من العلم الذي يدرسه له . فإذا ما انتهى منها فقد حصل على ملكة
في ذلك العلم لكنها ضعيفة ، وقصاراًها أن هيأته للفهم والتحصيل .

وفي المرحلة الثانية يرجع به إلى العلم نفسه ، فيتوسع في الشرح ،
ولا يلتزم القواعد العامة ، ولا يقتصر على رأي واحد ، وإنما يطلعه على
أوجه الخلاف ، ويعرض عليه أدلة كل فريق ، وبهذا تجود ملكته .

وفي المرحلة الثالثة يكون الطالب قد شدأ واستقام تفكيره ، ونضج ،
وصار جديراً بإدراك العويس المستغلق ، فعلى المعلم ألا يدع خفياً إلا وضمه
له ، وفتح مغلقه ، وأعانه على إدراكه . وبذلك يدرس العلم كله وقد تهيأت له
ملكه راسخة فيه .

٢ - وعلى المعلم أن يقرب المعلومات إلى أذهان تلاميذه البدائيين، مستعيناً بالأمثلة المحسوسة.

٣ - وبعد أن عرض هذه المراحل وأشار إلى أن بعض الممتهنين تجود ملكتهم قبل غيرهم، وانتقد المعلمين الذين يجهلون طرق التعليم الصحيح، فيعرضون على المبتدئ علوماً لا تلائم عقله - ويحسبون ذلك تدريباً وتمريناً - أو يخلطون نهایات العلوم في مبادئها قبل أن يستعد التلميذ لفهمها، فيعجز عن وعها، ويكل ذهنه، ويحسب العلم صعباً فيتنازل عنه ، وينفر منه ، ويتناول في هجرانه .

تعليمي

٤ - لقد راعى أفلاطون ميول الطفل واستعداده في تربيته وتعليمه^(١) ، ودعا إليها ابن سينا ، فراعى قدرة الطفل في المنهج الذي يدرس له ، وراعى ميله ، ليعلم مدبر الصبي أن ليس كل صناعة يرثها الصبي ممكنته له مواطية ، لكن ما شاكل طبيعة وناسبه ، وأنه لو كانت كل الآداب والصناعات تجحب وتنقاد بالطلب والمرام دون المشاكلاة والملاءمة إذاما كان أحد غفلاء من أدب أو عارياً من صناعة . . . ولذلك نرى واحداً من الناس توأته البلاغة ، وأخر يتوأته النحو ، وأخر توأته الخطب . . . وأخر يختار علم الهندسة ، وأخر يختار علم الطب . . .^(٢) وأشار إلى التدرج من السهل إلى الصعب ، فيعلم الصبي القرآن أو لاإحروف الهجاء ومعالم الدين ، ويروي الرجز ثم القصيدة ، فإذا ما فرغ من تعلم القرآن وحفظ أصول الفقه وجه إلى ميراد له^(٣) .

(١) تاريخ التربية ٧٩ - ٨٣ (٢) رسالة السياسة لابن سينا ٤

(٣) رسالة السياسة لابن سينا ١٣

وراعي الفارابي هذا الاستعداد أيضاً في قوله : « من المتعلمين أولو طبائع رديئة ، يقصدون تعلم العلوم ليستعملوها في الشرور ، فينبغي للمرء أن يحملهم على تهذيب الأخلاق ، ولا يعلّمهم شيئاً من العلوم التي إذا عرفوها استعملوها فيما لا يُحب ... و منهم البلداء الذين لا يرجى ذكاؤهم و براعتهم فينبغي أن يحثّهم على ما هو أعود عليهم . و منهم ذوو الأخلاق الطاهرة والطبائع الجيدة ، فيجب ألا يدخل المعلم عنهم شيئاً مما عنده من العلوم »^(١) . ثم أشار الغزالى إلى قدرة المتعلم العقلية بقوله : « من آداب المتعلم أن يبدأ بالأهم وألا يخوض في فن حتى يستوفى ما قبله .

وذكر من آداب المعلم أن يقتصر على قدر فهم المتعلم و يتدرج به ، وقال إن المتعلم القاصر ينبغي أن يلقى إليه الجلى اللائق به ، ولا يذكر له معلمه أن من وراء هذا تدقيقاً وهو يدخله عنه فإن ذلك يفتر رغبته في الجلى^(٢) .

٢ - على أن هذه الأطوار التي ذكرها ابن خلدون وسابقوه هي نفسها أطوار التعليم في هذا العصر ، فالمدارس تتدرج من ابتدائية إلى ثانوية إلى عالية ، وهذا هو النظام الطبيعي الذي تختمه مراعاة النمو الفكري .

ثم إن التدرج في المرحلة الواحدة يتفق مع التربية الحديثة في انتقالها من السهل إلى الصعب ، ومن المعلوم إلى المجهول ، ومن المعروف المشاهدة إلى المستربط بالنظر والدليل .

فثلايرى (كونتيوس) صاحب الطريقة الطبيعية في التعليم أن الطبيعة

(١) رسالة السياسة للفارابي ٢٩

(٢) إحياء علوم الدين ٤٣ / ١ - ٥٢

١٧٣
تبدأ أعمالها بجملة ثم تكملها وتفصلها وتتمم أجزاءها ، والصناع يترسّونها ،
فيتدرّجون من الكل إلى الجزء الواضح ، ثم إلى الخافي ، وكذلك يجب
أن يسير المعلم ^(٤) .

^(٤): ويختتم بستالوتنى التدرج من السهل إلى الصعب

ولقد ذهب بعض المربين المحدثين إلى تقسيم التلاميذ طوائف ينتمي
أفراد كل طائفة في درجة تفكيرهم أو أن تدرس كل طائفة من للعلوم
ما يحاجسها.

٣ - وابن خلدون في نصيحة للمعلمين أن يستعينوا بالأمثلة الحسية
يتفق مع علماء التربية وعلماء النفس في أن الحواس أبواب العلم ، وأن
المعقولات كلها تتشعب من المحسوسات والمدركات الحسية ، وأن الطفل في
نشأته الأولى يندفع بغرizia المعرفة والاستطلاع إلى تحسس كل شيء ،
فالحسوس هي وسائله إلى المعرفة ، وهي عون له على الحفظ والفهم ومراعاة
الذكر وسهولة التطبيق ، وقد حض إخوان الصفا على التدرج في التعليم
من المحسوس إلى المعقول ، قالوا : « ينبغي لمن يريد النظر في مبادئ
الموجودات ليعرفها على حقيقتها أن يقدم أولاً النظر في مبادئ الأمور
المحسوسة ؛ ليروض بها عقله ، ويقوى على النظر في مبادئ الأمور المعقولة ،
لأن معرفة الأمور المحسوسية أقرب من فهم المبتدئين ، وأسهل على المتعلمين .
وهم قد طبقوا ذلك في رسائلهم ، فأكثروا من الأمثال والتشبيهات ، للتوضيح
والإفهام وتشييت المعلومات .

ويقول بستالتزى : « إن المعانى الواضحة لا تصل إلى عقول التلاميذ إلا عن طريق الحواس ، . »

ثم إن الوسائل الحية تربى الحواس أيضاً، لأن العضو يحسن ما مرّن عليه ؛ وإذا كان ابن خلدون قد قرَّع المعلمين في عهده ، لجهلهم طبائع الأطفال وُقدَّرُهم العقلية فقد أشبهه روسو في حملته على المعلمين الذين رأوا أن العلم لا يجدى ما لم يكن صعباً على المتعلم ثقيلاً على نفسه . وقال في مقدمة كتابه إميل : « إن كثيراً من المربين الحازمين ليخطئون في مواقع التربية الصحيحة ، إذ يأخذون الأطفال بما يحتاج الرجال إلى معرفته ، غافلين عمما تستطيع عقول الأحداث فهمه وإدراكه ، وإنهم ليخطئون كذلك حين يتطلبون في جسموم الأطفال عقول الرجال ، ولا يفكرون في حقيقة الطفل قبل أن يصير رجلاً ، (١) . »

تعليم اللغة

يقول إن لغة الناس في عصره نامية عن قواعد العربية وأوضاعها ، خارجة عن حدودها ، معايرة لصحيحها . ويرى أن اللغة ملكة ، فمن الميسور تعلمها وإجادتها .

والطريق إلى ذلك :

١ - أن يبدأ المتعلم باللغة الفصحى ، لينطبع عليها لسانه وفكره ، فلا يُحِرِّف ولا يُصَحِّف ولا يلحن . وإنك لتجد سكان الأمصار أشد إغراقاً في اللحن من سكان البوادي ، ويشتد الإغراء ما بعد المسر عن

البادية . ذلك بأن أهل الأنصار لقنوا أول الأمر لغة ملحوظة ، مغایرة لقواعد العربية ، منافية لملكتها ، فاعوجت ألسنتهم ، وفسدت لغتهم .

٢ - ولن يجد المعلمين تعلم النحو وحده كما يتوجه النحاة والمعلمون ، فيجعلون بتعليم الأحداث قواعد النحو ، ويحسبون أنها الوسيلة إلى صحة العبارة . وهم مخطئون ، لأن اللغة الفصحى لا تدرك إلا بمخالطة العرب الفصحاء ، واستماع كلامهم ، والدرية على التحدث بأساليبهم ؛ لأن اللغة مملكة ، والملكات لا تكتسب إلا بالتكلر والارتياض والمران ، فلقد كان العربي يحاكي أهله في نطقهم وتعييرهم كما يحاكي الطفل أهله في النطق بالمفردات ثم بالتركيب ، وبتكرار ذلك يحصل على مملكة اللغة .

ثم يقول : وهذا هو معنى ما تقوله العامة : إن اللغة للعرب بالطبع أى بالملكة الأولى التي أخذت عنهم ، ولم يأخذوها عن غيرهم ،^(١)

٣ - أن يحفظ من القرآن والحديث وما خلف العرب من شعر ونشر قدراً يقوم لسانه ويكسبه الملكة ، حتى يصير لكثرة حفظه كأنه قد نشأ فيهم .

٤ - أن يأخذ نفسه بالتعبير بما يريد ، على أنماط الأساليب العربية ، لأنه كلما أكثر من الحفظ والاستعمال كثر جيد كلامه ، وجاد كثيره .

٥ - ثم لا بد له مع ذلك كله من سلامة الطبع ، وفهم منازع العرب وأساليبهم ، وطرق تراكيبهم . ولا بد له من ذوق راق يميز جيد الكلام من ردائه ، وبلغه من فاتره وبارده .

٦ - وهو يشترط في تعلم النحو أن يُضْحَب بتطبيقه، لأن تعلمه من غير تطبيق عبث، وشتان بين الملكة اللغوية والصناعة اللغوية. فعلوم اللغة (علوم بكيفية) وليس (نفس الكيفية فليست نفس الملكة) وقد تستغني الملكة عن علوم اللغة. ويمثل لذلك بمن يعرف صناعة يدوية معرفة نظرية لكنه لا يجيدها عملاً، ولذلك نجد كثيراً من جهابذة النحوة، والمهرة في صناعة العربية المحيطين علماً بتلك القوانين إذا سئل كتابة سطرين لأخيه أو ذي مودة، أو شكوى ظلامة، أو قصد من مقصوده أخطأ فيها عن الصواب، وأكثر من اللحن، ولم يُجِدْ تأليف الكلام لذلك، والعبرة عن المقصود على أساليب اللسان العربي. ولذا نجد كثيراً من يحسن هذه الملكة، ويجيد المنظوم والمنثور وهو لا يحسن إعراب الفاعل من المفعول ولا المرفوع من المجرور، ولا شيئاً من قوانين صناعة العربية،^(١).

وقليل من الناس يجيد الصناعة والملكة، وهو يعزو ذلك إلى أنهم درسو كتاب سيبويه «لأنه لم يقتصر على قوانين الإعراب فقط، بل ملأ كتابة من أمثال العرب وشواهد أشعارهم وعباراتهم، فكان فيه جزء صالح من تعليم هذه الملكة».^(٢)

ويقرر أن الذين يدرسون النحو مجردآ من شعر العرب ونثرهم ويحصلون على العلم صناعة لا مملكة، وهذا هو الذي حدث في بلاد المغرب في عصره، أما في الأندلس فغير ذلك.^(٣)

(٢) المقدمة ٤٩٤

(١) المقدمة ٤٩٤

(٣) المقدمة ٤٩٥

تعلیم:

هذا رأى بين الوجهة ميرتفع والتربيّة الحديثة ، لأننا بالتقليل نتعلم اللغة
صغاراً ونجيدها ونقتصر فيها كباراً .

فالتقليد والترن ، ورعاية الصحة في النطق وفي التركيب أسس ثابتة لتعلم اللغة . لهذارأى فترينو زعيم التربية الأدية في إيطاليا أن أنجح وسيلة لتعلم اللغة اللاتينية للأطفال أن يجعلها لغة المحادثة منذ الصغر ، يتفاهمون بها ، ويتحدثون مع أساتذتهم ، على أنهُ يعني بتجوييد نطقهم ، وجودة إلقائهم ، وتمثيلهم للمعنى . وكان يتدرج بهم في مخفوظاتهم من السهل إلى الصعب ومن القطع القصار إلى الطوال ، على حسب تدرجهم في السن ^(١) .

ولما جاء لورنر نصح المعلم أن يعني بحمل الأطفال على جودة المنطق و صحته ،
بل آثر هذه العناية على عنايته بتدریس القواعد ^(٢) .

ولقد كانت عادة العرب ولاسيما الخلفاء أن يرسلوا أولادهم إلى البادية لتنشئتهم صحاح الجسم والأخلاق والألسنة.

والتربيـة الحـديـثـة تـحـرـص عـلـى التـطـبـيق غـاـيـة الـحـرـص ، لـأـن درـاسـة قـوـاعـد الـلـغـة وـالـبـلـاغـة لـأـتـجـدـى مـا لـم تـقـرـن بـتـمـرـينـات ، وـتـحـرـص أـيـضـاـ عـلـى أـن تـعـلـم القـوـاعـد النـحـوـيـة وـالـبـلـاغـيـة فـي أـسـالـيـب رـائـعة ، وـعـبـارـات مـنـوـعـة .

تعليم الصناعة

يقرر أن الصناعة عمل جسمى فكري ، فتعلّمها من المباشرة أولى من

تعلماها بالنظر ، ويقول إن هذه الملكة تحدث عن تكرار الفعل مرة بعد أخرى حتى ترسخ صورته ^(١) .

ويرى أن الذى اكتسب مهارة فى صناعة قل أن يجيد أخرى ، ومثال ذلك الخياط ، فإنه إذا كان بارعاً فى الخياطة لا يجيد النجارة أو البناء ، إلا أن تكون الأولى لم تستحكم بعد ، والسبب أن الملائكة صفات للنفس لا تزدحم ، ومن كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملائكة ، فإذا تلونت النفس بالملائكة الأولى ضعف فيها الاستعداد لقبول ملكة أخرى .

ويقول إن هذا في العلوم أيضاً ، فمن أجاد علمًا قل أن يجيد معه غيره ^(٢)

تعليم :

رأيه في تعليم الصناعة موافق لعلماء التربية المحدثين في تدریسهم المواد التي تكسب المهارة ، وهم يقررون أن الأعضاء هي العامل الأول في هذه الدروس ، وأن الذهن في محل الثاني ، ويرون أن الحواس وأعصاب الحركة هي العاد الأول ، ويقولون إن الانفعال بها ينتج حركة عضلية لا تفكيراً ، ويعتقدون أن الطريق إلى تعلم الصناعة وكسب مهارة إنما هو التوجّه إلى عناصر العمل والتدريب عليه دربة صحيحة .

أما حكمه بتعذر إجاده صناعتين أو علمين معاً فإنه موضع نظر . وسنعرض له بعد قليل .

نظـم التعلـيم

صـفـة

(١) كتاب واحد

يقول : لا ينبغي أن يزيد متعلمه على فهم كتابه الذي أكب على التعلم منه بحسب طاقته ، وعلى نسبة قبوله للتعليم ، ولا يخالط مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيه من أوله إلى آخره ، ويحصل أغراضه ، لأن المتعلم إذا نال قدرًا من العلم نشط في طلب المزيد ، حتى يستولي على غايته ، وإذا خلط عليه الأمر بجز عن الفهم وأدركه الكلال ، وانطماس فكره ، ويلبس من التحصيل وهجر العلم والتعليم ^(١) .

تعليق

هذا رأى لا نقر علامتنا عليه ، إلا إذا كان غرضه أن ينحي باللوم على ما رآه في معلى زمانه من إعنة المتعلمين باستيعاب كتب عددة في العلم الواحد ، مع اختلاف الآراء وتبين المصطلحات ، لأن هذا مع البدائين إبعاز وإملال . وقد ذكر في موضع آخر أن متعلم الفقه على المذهب المالكي كان يقرأ كتاب المدونة وما كتب عليها من الشروح الفقهية ، مثل كتاب ابن يونس واللخمي وابن بشير والتنبيهات والمقدمات والبيان والتحصيل على

العتية ، وكذلك كتاب ابن الحاجب وما كتب عليه . ثم إنه يحتاج إلى تمييز الطريقة القيروانية من القرطبية والبغدادية والمصرية ، وطرق المتأخرین عنهم والإحاطة بذلك كله ، وحينئذ يسلم له منصب الفتیا ، وهي كلاما متكررة ، والمعنى واحد ، والتعلم مطالب باستحضار جميعها ، وتمييز ما بينها ، والعمر ينقضی في واحد منها ^(١) . ثم يمثل لطريقة تعليم اللغة بأن المتعلم يطالب بكتاب سیبویه وجميع ما كتب عليه ، وطرق البصريین والمتأخرین مثل ابن الحاجب وابن مالک وجميع ما كتب في ذلك ^(٢) . إذا كان الاكتفاء بكتاب واحد في كل علم طريقة صحيحة مع المبتدئين فإن تعدد المراجع مع السکار خير عون لهم على الفهم والتعمق والموازنة والبصر بنواحی الموضوع .

(٢) علم واحد

تأثير ابن خلدون بالزرنوچي والغزالى في تقریر علم واحد يدرسه التلميذ حتى ينتهي ^(٣) ، فيشرع يدرس غيره ، فقال « ومن المذاهب الجميلة والطرق الواجبة في التعليم ألا يخلط على المتعلم علمين معا ، فإنه حينئذ قل أن يظفر بوحدة منها ، لما فيه من تقسيم البال ، وانصرافه عن كل واحد منها إلى تفہم الآخر ، فيستغلقان ويستعصيان ، ويعود منها بالخيبة ^(٤) .

تعليق

هذا الرأى يحتم على المعلم أن يلتزم علمًا واحدًا لا يشذ عن حدوده ، مع أن العلوم تداخل وتعاون .

ولقد يتعدى تفہم موضوع في علم بغير استعانته بعلم آخر ، لأن كثيراً

(١) المقدمة ٤٧٠ (٢) المقدمة ٤٧٠ (٣) الإحياء ٤٦ (٤) المقدمة ٤٧٢

من الحقائق متصل بعضها ببعض اتصالاً وثيقاً بحيث لا يمكن تدريس العلم منعزلاً . فنحن مثلاً لا نستطيع تدريس التاريخ منعزلاً عن الجغرافيا والاقتصاد والاجتماع ، ولا نستطيع دراسة الأدب مجردأً من البلاغة والقواعد والتاريخ والجغرافيا الحُلُم إن المعرفة كلها وشجرتها بينها وبين غيرها اتصالات قوية سهل حفظها ورسخت في الذهن ، وأسرعت إلى الذاكرة عند الحاجة . على أن العقل ينبع في تفكيره طريقة خاصة هو الرابط بين الحقائق المتناظرة ، وفصل العلوم بعضها عن بعض ، ودراسة كل منها منعزلاً عن غيره خالفة للعقل في سيره الطبيعي .

ثم إن العلوم كلها فروع مشتبكة من دوحة المعرفة . عزلت التسهيل الدراسة وحصر المتشابه المتماثل في دائرة معينة ، والخروج بالتعلم من علم إلى آخر يسليه ويحدد نشاطه وقواه ، ويفسح مداركه وآفاقه ، ويحبب الدرس إليه .

على أن بعض المربين المحدثين رأى أن تركز العلوم حول علم واحد ، مؤسسين رأيهم على نظرية هربارت الألماني في العقل ، فاتخذ بعضهم الجغرافيا أساساً ، وتخير بعضهم التاريخ محوراً ، وآخر الإنجليز أن تكون رواية روبيشن كروزو مداراً ، وأقام الآمر يكيون التاريخ قاعدة ، وابتكر بعض المحدثين طريقة المشروع ، وما ذلك إلا لربط المعرفة والتئشى مع العقل في إدراكه .

(٣) التوسيع والإجمال

١ - قسم ابن خلدون العلوم إلى قسمين : قسم طبيعي يهدي إلى الإنسان بفكرة ، وقسم نقلٍ يأخذه عن وضعه : الأول هو العلوم الحكيمية الفلسفية (م ٦ - ابن خلدون)

وهي التي يمكن أن يعرفها الإنسان من تلقاء نفسه ، ويهدى إليها بعدها ،
والثانية هو العلوم النقلية الوضعية المستندة إلى الشرع ، وليس للعقل مجال
فيها إلا أن يتحقق الفروع بالأصول .

والعلوم الشرعية أصلها الكتاب والسنة ، وما يتعلّق بهما من التفسير
والقراءات والأصول والكلام ، ولها علوم تساعد على فهمها هي علوم
اللسان من لغة ونحو وصرف وأدب وبيان ، وهذه هي العلوم الآلية ^(١) .
أما العلوم العقلية فهي المنطق والطبيعيات والإلهيات والتعاليم (الهندسة
الارتماطيق ، الموسيقى ، الهيئة) . ولكل من هذه العلوم فروع ، فـ
فروع الطبيعيات الطب ، ومن فروع علم العدد الحساب والفرانص
والمعاملات . . . ^(٢) . والمنطق من العلوم العقلية كالنحو مثلاً من العلوم
النقلية وسيلة إلى صحة التفكير .

٢ - ورأى أن العلوم الغائية وهي العلوم المقصودة من شرعية
وفلسافية جديرة بالتوسيع وتفریع المسائل واستكشاف الأدلة ؛ لأن ذلك
يزيد طالبها تمسكنا ، ويوضح معانٍها المقصودة .

أما العلوم الآلية من لسانية ومنطق ، فهي وسائل إلى غيرها ، فلا ينبغي
التوسيع فيها ولا التفریع ، لأن الاتساع فيها يخرجها عن وظيفتها ، ويزاحم
العلوم المقصودة . ثم إنها طويلة وكثيرة الفروع والحصول على ملامة فيها
صعب ، فالتوسيع فيها لغو .

وهو ينذر بالذين بسطوا النحو والمنطق وأصول الفقه ، وضيّعوا العمر ،

وشعروا عقو لهم بما لا يعنهم . حتى صيروا العلوم الوسائل مقاصد ، وربما تقع فيها أنظار لاحقة إليها في العلوم المقصودة فهى نوع من اللغو ، وهى أيضا مضره بال المتعلمين ، لأن المتعلمين اهتمهم بالعلوم المقصودة أكثر من اهتمامهم بوسائلها ، فإذا قطعوا عمر في تحصيل الوسائل فتى يظفرون بالمقاصد ؟^(١)

تعلبو

- ١ - تقسيم ابن خلدون للعلوم إلى عقلية ونقلية يشبه تقسيم الباقلاني لها إلى علم ضرورة وعلم نظر واستدلال^(٢)
- ٢ - ورأيه في الاكتفاء بالضروري من العلوم الوسائل جدير بأن يقدر ويطاع ، لأن بعض الطلاب ما زالوا يصررون جهودهم في التوسيع في العلوم الوسائل ، ويتخرجون ورموزهم مليئة بالفروض الخيالية في الفقه ، والمحاكمات اللغظية في النحو ، والقضايا الملتوية في الأصول ، ثم هم أغنياء في العلوم الوسائل يجيدون أصولها وفروعها ، ولكنهم فقراء في العلوم الغائية ، فما أشبههم بمن يريد نهرًا ينهل منه ، فيعدل عن الطريق القاصد إلى طرق ملتوية دوارة ، فيضنه النصب ، ويحرقه العطش ، ثم يصل النهر وقد كل ، فلا يكاد يرتوى حتى يهلك .

ليس من الحكمة أن يدرس الطالب النحو في الأشموني وحواشيه ، والمغني وأشباهه ، ولا من الرأى أن يدرس البلاغة في حواشى السعد وشرح التلخيص وأضرابها من الكتب التي تصدت لدراسة البلاغة وهي من البلاغة براء ، أساليب وأنكارا .

إن كثيراً من الطلاب في أشد الحاجة إلى رأى ابن خلدون، ليؤخذوا به، فينفسح أمامهم مجال الدراسة للعلوم الأساسية المقصودة، فيتقنونها ويجيدوها.

٣ - وإن كان ابن خلدون قد ذهب إلى التوسيع في العلوم المقصودة، والاكتفاء باليسير الضروري من العلوم الوسائل، فإنه فقد في شدة أولئك الذين يختصرون الكتب، فيحذفون فضولاً ضرورية، ويضغطون العبارات ضغطاً، ويحملون الألفاظ أثقالاً من المعانى، فاصدرين تسهيل الحفظ على المتعلمين فيما اسموه (المتون) ^(١).

وهو موقف جداً في هذا الرأى، لأن الماسخين للكتب يجذبون على عقول الدارسين بالإخلال والإملال والإعنات، ويطغرون بالطالب إلى درجة لم يتهيأ لها عقله بعد، وذلك بتعريفه غaiات العلم ومشكلاته وهو لم يستعد لقبوها، لقصور عقله، وضعف مداركه، فهو في حاجة إلى ضرب المثل، وعرض ما يلام ثم قواه. ثم إن في هذا الضغط تلبيساً عليه؛ لأن استخراج المعانى من الجمل المضغوطة عمل مضن شاق. على أنه يكلف أن يستوعب المتون، وهذا إرهاق له.

ولأن تأليف المتون وحفظها، والكلف بالاقتضاب والاختصار، وأخذ المتعلمين بالدراسة على هذا الطراز جهل بالتربية، وتشويه لروعه العلم، وإخلال بالعرض الحقائق.

ولقد قال عالم آخر اختصر كتابه ومسخه: لقد كان لكتابي يدان فبرت يداً، وساقان فقطعت ساقاً، وعينان ففقأت عيناً، وكان رجلاً فأرجعته طفلاً، فعل الله بك مثل الذي فعلت به.

وإذا كنا نجأ بالشکوى من حال التعليم في مصر ، ونقول إن المدارس لاتهينا العقول المفكرة ، ولا الآراء المدبرة ، ولا الأذهان المبتكرة ، فقد يكون من أسباب ذلك أنها تعنى بالبحوث المختصرة ، والآراء المقتضبة الميسّرة . وكلما هم أستاذ بالتوسيع والبساط تذكر أن لديه برنامجا يجب أن يتمه ، ومقررا يتطلب بذل الهمة ، فعدل عن بسط الرأى إلى ضغطه ، وآخر الكم على الكيف .

إن دراسة العلوم للباري في مختارات مبهمة لاتشحذ ذهنا ، ولا ترهف عقلا ، ولا تهرس عادة البحث ، وقصاراها أنها عمل آلى مملول .

(٤) اتصال مجالس التعليم

رأى ابن خلدون ألا يطيل المعلم على المتعلم في الفن الواحد بتفريق المجالس ، وتقطيع ما بينها ، لأن الفصل ذريعة إلى النسيان ، وقطع مسائل العلم ، والملكات تحصل بتتابع الفكر وتكراره ، وإذا تنوسي الفعل تنوّسية الملائكة الناشئة عنه .

طبع

لأنوافقه على رأيه ، لأن اتصال مجالس التعليم يبعث الكسل والملل ، ويطير بالنشاط والانتباه كل مطير ، فيجهد المعلم نفسه وتلميذه ليس معه . وكيف يصبر المتعلم صغيرا أو كبيرا على المجلس المتصل والإصغاء المتواتي ؟

والخير ما تستنه المدارس من الراحة بين الدرس والدرس ، والراحة بين الأسبوع والأسبوع ، والإجازة بين العام والعام .

(٥) الشدة والعقوبة

١ - ذهب ابن خلدون إلى أن معاملة التلاميذ بالشدة مضره بهم ، لأنها إرهاق للجسد ، وإفساد للخلق ، ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطابه القهر ، وضيق على النفس في انبساطها ، ودعاه إلى السُّكُل ، وحمله على الكذب والخبث ، خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه ، وعلمه المكر والخداع ، وصارت له هذه عادة وخلقا . وفسدت معانى الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتمدن ، وهى الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله ، وصار عيالاً على غيره في ذلك . بل كسلت نفسه عن اكتساب الفضائل والخلق الحميد وهكذا حصل أسلك أمة وقعت في قبضة القهر ، ونال منها العسف .

٢ - على أن ابن خلدون لا يحظر العقوبة حظرا ، فقد نقل عن أبي محمد ابن أبي زيد أنه لا ينبغي لمودب الصبيان أن يزيد في ضربهم - إذا احتاجوا إليه - على ثلاثة أسواط شيئاً ، وقال إن من أحسن مذاهب التعليم ما تقدم به الرشيد لعلم ولده الأمين « يا أحمد إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبك ، فصير يدك عليه مبوسطة . وطاعتكم له واجبة .. وقومه ما استطعتم بالقرب والملائنة ، فإن أباهما فعيك بالشدة والغلظة »^(١) .

وإجمال ذلك :

- ١ - القهر يحزن الصبي
- ٢ - يدعوه إلى السُّكُل وبغض التعليم
- ٣ - يحمله على الخبث والخداع والكذب

و — يرثه على الحين والختنوع
ه — يقعد به عن كسب الفضائل

تعليق :

١ — تأثر ابن خلدون بأراء سابقيه من مربى العرب ، فإن سينا يرى أن حسم الداء خير من علاجه ، وأن المربى الحكيم هو الذي يبعد بالطفل عما يغريه بالخطأ ، فإذا أخطأ فليراوح في عقوبته بين الترغيب والترهيب ، والإيناس والإيحاش ، والإعراض والإقبال ، والحمد مرة والتوبية أخرى ، فإن احتاج إلى الاستعانة باليد لم يحجم عنها . ول يكن أول الضرب قليلاً موجعاً ، فإن الضربة الأولى إذا كانت موجعة سام ظن الصبي بما بعدها ، واشتد خوفه منها ، وإن كانت خفيفة غير مؤلمة حسن ظنه بالباقي فلم يحصل به .

والغزال ينصح المعلمين ألا يتشددوا على تلاميذهم ، وعليهم أن يشفقوا بهم ، وبجر وهم بجري بينهم . وعليهم أن يزجروهم عن سوء الأخلاق بطريق التعریض ما أمكن ، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبية ، فإن التصریح بهتك حجاب الهيئة ، ويورث المرأة على المخالفة ، ويفيج الحرث على الإصرار ، إذ قال صلی الله عليه وسلم ، وهو مرشد كل معلم : « لو منع الناس عن فت البعر لفتوه ، و قالوا ما نهينا عنه إلا وفيه شيء » .^(١)

وإلى حظر الشدة ذهب العبدري أيضاً ، وحذر المعلمين ما يفعله بعض المعاصرین له من إعداد عصا لضرب الصبيان ، لأن هذا لا يليق بنى ينتسب إلى حلة الكتاب العزيز ، على أن الصبيان مختلفون ، فرب صبي يكفيه

عبوسة وجه معلمه ، وآخر لا يرتدع إلا بالكلام الغليظ ، وآخر لا ينجر إلا بالضرب والإهانة .

فإذا اضطر المعلم إلى الضرب فليكن غير مبرح ، ولا يزيد على ثلاثة أسواط شيئاً ، ولتكن أداة الضرب رقيقة^(١) .

٢ - دعا المربيون المسلمين إلى حظر العقوبة القاسية ، ووافقهم المربيون الغربيون فيما بعد . وهم جميعاً محقون ، لأن العلم يجب أن يحبب إلى الطفل بالتشويق والإغراء ، وأن تقويم الأخلاق وسليته القدوة والنصح والتهذيب . والحق إن الشدة وعبوسة الوجه تبعض العلم والمعلم إلى المتعلم ، وتغرس فيه رذائل كثيرة ، والشدة لا تخلق أحراراً ، ثم إنها تذهب بعزة النفس . على أنها وازع بعض مؤقت؛ لأنها لا تعتمد على الوجдан والضمير والتمييز بين الحسن والقبيح . وكم خائف من العقوبة يقدم على الجريمة إذا أمن العيون . ثم هي تنزع من جو الطفولة أطیاف البهجة والمسرة ، فتبتسر حياتهم ، وتکفہر أيامهم ، وتذبل نضارتهم .

وابن خلدون محق في أن هذه الآثار لا تقف عند الطفولة أو الشباب بل تتعداها إلى الرجولة .

ولا نستطيع أن نحضر العقوبة دائماً ، لأن التجارب ثبتت الحاجة إليها أحياناً ، ولقد نجد بعض التلاميذ متکاسلين أو مشاكسين ما دام أستاذهم لين المعاملة ، هين المؤاخذة ، فإذا ما آنسوا منه الحزم والصلابة تسابقو إلى الطاعة والجد .

٣ - وإذا كان ابن خلدون ومن سبقه من مربى العرب قد حظروا

العقوبة القاسية ، وأباحوا العقوبة الهيئة إذا ما دعت إليها الحاجة ، فإنهم بذلك عمليون واقعيون . أما كورنيليان المربى الروماني فقد جنح إلى الخيال في قوله : أنا لا أرضى بالعقوبات البدنية ، ولا أُنصح باستخدامها وسيلة من وسائل التعليم في المدارس ، على الرغم من أنها عادة موروثة ، وعلى الرغم من أن شيخ الفلسفه الرواقين (كرسيوس) لا يرى فيها بأسا ، فإنها عقوبات العبيد ، وفيها للأطفال مذلة ومهانة . وإذا كان الطفل خسيس الطبع لا يؤثر فيه التوبيخ ، ولا يردده التأنيب ، فإن العقوبة البدنية لا تزيد إلا تبلداً وجحوداً ، على أن الطفل إذا وجد بجانبه من يصره بالواجب ، ويستميله دائماً إلى العمل لم تكن به حاجة إلى العقوبات القاسية ^(١) .

(٧) التعليم صناعة

يرى أن التعليم صناعة لا طبيعة ، لأن الحذر في العلم إنما يكون بحصول ملكة حيطة بمبادئه وقواعديه واستنباط فروعه من أصوله وهذه الملكة غير الفهم والوعي ، لأننا نجد فهم المسألة الواحدة من الفن الواحد ووعيها مشتركاً بين البادئين في هذا الفن والشادين فيه ، لهذا كان لابد أن يقوم بالتعليم أصحاب ملوكات فيه .

ثم إن تعليم العلم صناعة أيضاً لأن المصطلحات مختلفة ، فلكل إمام من المشهورين اصطلاح في العلم يختص به ، شأن الصناعات كلها ، وهذا الاصطلاح ليس من العلم ، وإلا لكان واحداً عند الجميع ^(٢) .

تعليم

ذهب إلى أن التعليم صناعة لا طبيعة ، والحق إنه طبيعة أيضاً ، لأن الإنسان مفطور على نقل خواطره إلى غيره ، فيفهم ويتفهم ، ويربى ويعمل ، وينشر الثقافة ، ولا يستطيع عالم أن يكتم علمه ، وهل تستطيع الوردة أن تحبس شذاها؟

وهل يقدر الطفل أن يقمع ميله إلى الحركة ونزعه إلى الحل والتركيب والاستطلاع؟

ومن البديهي أن نزعة العالم إلى أن يُعلم تقوى تبعاً للكثرة الجماعية، وعظم حضارتها ، وقوة الصلات بينها . . . وإذا فالمعلم مطبوع ومصنوع ، ولا يغنى أحد الوصفين عن الآخر .

(٧) التعليم في الأمصار

عرض في هذا الفصل أساليب البلاد العربية في التعليم ، وهي المغرب والأندلس وتونس والشرق .

ومن عرضه نتبين أنها كلها تتفق في البدء بالقرآن الكريم ، لكن بلاد المغرب تأخذ الصبيان بالقرآن وبرسمه ، وتقف عند ذلك ، لا تتعدها إلى حديث أو فقه أو شعر ، إلى أن يتحقق فيه أو ينقطع ، فینقطع في الغالب عن العلم .

أما الأندلس فتضييف إلى تعلم القرآن رواية الشعر والنشر ، وتأخذ أحداها بقواعد اللغة ومتناها وتجويده الخط . وتونس قريبة الشبه بهم . وأما أهل المشرق فإنهم يزيدون إلى القرآن علوماً ، عدا الخط فإن له

مدارسه المخصوصة ، والعلم في المشرق مزدهر ، والصناعة راقية ، حتى إن الروحاء من المغرب يظنون أن عقولهم أقل من عقول المشارقة ، ويتشيرون لذلك ويولعون به^(١) .

ويرى أن اقتصار أهل المغرب على القرآن قعد بهم عن إجاده العلوم اللسانية ، والبراعة في الأدب ، ويعمل لذلك بقوله : « إن القرآن لا تنشأ عنه في الغالب ملحة ؛ لأن البشر مصروفون عن الإتيان بذلك ، فهم مصروفون لذلك عن الاستعمال على أساليبه والاحتذاء بها ، وليس لهم ملحة في غير أساليبه ، فلا يحصل لصاحبه ملحة في اللسان العربي ، وحظه الجود في العبارات ، وقلة التصرف في الكلام »^(٢) .

ثم يبين أن أهل إفريقيا — تونس — أخف من أهل المغرب في هذا الضعف ، لأن النظام مختلف ، إذ أنهم يضيوفون إلى القرآن بعض العلوم ، فيقتدرؤن على بعض التصرف ومحاذاة المثل بالمثل . على أن ملكتهم قاصرة أيضا ، إذ أن جل اعتمادهم على القرآن ، وأكثر محفوظهم علوم ضعيفة الأساليب ، ركيكة المعانى . ثم إن طالب العلم صمود في مجلس العلم لا يتكلم ولا يسأل ولا يعارض ، معنى بالحفظ جدا ، لهذا لا يكتسب من تعلمه ملحة جيدة قوية ، ولا رأيا سديدا مستقلا ينافح به عن وجهته إذا علم أو جادل^(٣) ، وما أتاهم القصور إلا من سوء طريقة التعليم ، وليس عقولهم متهمة لأنهم أسرع من غيرهم حفظا واستيعابا . على أن خطل طريقة التعليم

(١) المقدمة ٤٧٦ ٣٦٢

(٢) المقدمة ٤٧٦

(٣) المقدمة ٤٧٦ ٦٤٩٦

أطّال عهده ، فأقصر مدة له في المغرب ست عشرة سنة ، وهي في تونس خمس سنوات ^(١) .

ويرى أن الأندلسيين أسلم من المغاربة عبارة ، وأسمى أدبا ، وأرصن أساليب ، لأنهم يرون الشعر الجيد والنشر البليغ ، ويدرسون اللغة من الصغر ^(٢) ولكنهم قصروا في العلوم والفلسفه والفقه لتناقص عمر انهم بهجات الأعداء ^(٣) ، ولبعدهم عن مدارسة القرآن والحديث ، وهي أصل العلوم وأساسها ، فكانوا بذلك أهل أدب ^(٤) .

نهاية :

١ - الحق إن القرآن وحده لا يكفي ، ومن التجوز أن نسمى حافظه متعلما ، بل لا بد من أن تصحبه ، أو تبعه أو تسبقه علوم أخرى ، ولست أعني بهذا أن الاكتفاء به كالتجدد من التعليم أصلا ، لأن حافظي القرآن في مصر - وكثير منهم لا يعرف غيره ، وأكثرهم لا يفهم القرآن إلا فيما سطحيا - أهل حديثا وأسلم نطقا وأقوى عبارة وأقدر على فهم اللغة من لم يحفظوه ، ولم يجلسوا إلى معلم . ولقد يتأثر بعضهم بأساليب القرآن ، فيحاول التحدث بلسان عربي وعبارة منمقة .

٢ - ولست أواافقه على أن حفظ القرآن الكريم لا تنشأ عنه ملامة ، لأن الناس مصروفون عن الإتيان بهمثه ، وعن محاكاته ، وليس هنا مجال تفصيل مذهب الإعجاز الذاتي ، أو مذهب الصرف الذي ذهب إليه النظام ، وإنما أرى أن كثيرا من الأدباء الإسلاميين تأثروا به في العبارة والخيال

(١) المقدمة ٤٧٦

(٢) المقدمة ٣٦٢

(٣) المقدمة ٤٧٦

(٤) المقدمة ٣٦٢

واقتبسوا منه المعانى ، وقد ألف أبو العلام كتابه الفصول والغايات على نمط القرآن الكريم ، ومن الطبيعى أن اللحاق بأسلوب القرآن محال ، ولكن المحاكاة مستطاعة .

(٨) القرآن الكريم

يقول إن تعلیم القرآن شعار دینی ، لأنّه يتنزل على قلب الطفل الغض بالإيمان والعقائد فيرسخ يقینه ، ويقوی ادینه ، وتعلیم الصغر أبیق وأثبت من تعلیم الكبر .

ثم يعرض رأى القاضى أبي بكر بن العربي فيقول إنه قدم تعلیم اللغة والشعر على سائر العلوم كذهب الأندلسين ، لأن الشعر ديوان العرب ، ولأن اللسان العربى اعوج وانحرف ، وحاجتنا الى تقویمه تضطرنا إلى تقدیمه ، ثم ينتقل التلذذ الى الحساب ثم القرآن الكريم ، وحينئذ يتيسر له فهمه « ويما غفلة أهل بلادنا في أن يؤخذ الصبى بكتاب الله في أول أمره ، يقرأ ما لا يفهم ، وينصب في أمر غيره أهم عليه ، ثم بعد ذلك ينظر في أصول الدين ، ثم أصول الفقه ، ثم أصول الجدل ، ثم الحديث وعلومه . وعقب ابن خلدون على ذلك بأنه مذهب حسن ، لكن العادات لا تساعد عليه ، فقد ألف الناس تقديم القرآن استداراً للخير والبركة والثواب ، وخوفاً من طروع حدث على الصبى يمنعه من حفظ القرآن ، وثقة بأن الصبى في صغره أطوع للأمر ، فإذا ما شب فقد يستعصى ويرغب عن حفظ كتاب الله ، ولو حصل اليقين باستمراره في طلب العلم وقبوله التعليم لكان هذا المذهب الذى ذكره القاضى أول ما أخذ به أهل المغرب والمشرق ،^(١)

تعليق

يظهر أن ابن خلدون ميال إلى رأى ابن العربي ، لأن ردوده واهنة ، ذلك بأن العادة تغير ، ولو لم نخضع عاداتنا للتغيير والترقى لظللنا في جمود أو تقهقر ، ولم يغير المربون عادات معاصريهم ما بلغت التربية وعلم النفس هذا الأوج . والعجيب من ابن خلدون العالم الاجتماعى أن يتخوف مخالفة العادة .

ثم إن التبرك لا ينقطع ما دام القرآن يحفظ ويدرس ، وكل ما حدث أنه نقل من صغار لا يفهمونه إلى كبار يحفظونه ويفهمونه ، ولعل هذا أكثر استدراراً للخير والبركة والثواب ، فلقد نزل القرآن ليفهم أولاً لا لحفظ .

ثم إن الخوف من طرفة آفة على الصبي أو من تمرد حجة واهية ، بل هي تعلة يلجأ إليها من يعتصم بغير معتصم . وأرى أن ابن العربي محق ، ولو استطعنا أن ننفذ ما أشار به لضمنا حفظ القرآن وفهمه ، ولضمنا للغة قوة وروعة واحتذاء بأساليبه . وإن لم نستطع تحقيق رأى ابن العربي فانتو سط بين الرأيين ، فنأخذ الأحداث بحفظه مشروها على أقدار عقو لهم .

(٩) الرحلة في طلب العلم

دعا إلى الرحلة في طلب العلم ، لأن البشر يتلقون علومهم ويكتسبون أخلاقهم تارة علماً وتعلماً ، وتارة حاكمة وتلقينا . ولا شك أن التلقين وال المباشرة أجدى ، وعلى قدر كثرة الأساتذة تحصل الملكات وترسخ ، ثم

أن لقاء الأئمة كفيل بإدراك مصطلحاتهم ومعرفة طرقيهم ، ووسيلة إلى تصحيح المعارف^(١) .

تعليمه :

١ - كانت الرحلة في طلب العلم سنة شائعة بين المسلمين ، فكان كثير من طلاب العلوم يجوبون ربوع العالم ، ويلقون شيوخهم ، مستعينين بالصعب من متاعب ونفقات واغتراب وأخطار .

والأمثلة على ذلك كثيرة جدا . فثلا أبو الخطاب عمر بن الحسن الأندلسى اشتغل بطلب الحديث فى أكثر بلاد الأندلس ، ولقى بها علماءها ومشايخها ، ثم رحل عنها إلى بر العدوة ودخل مراكش ، واجتمع بفضلائها ، ثم رحل إلى إفريقية ومصر والشام والعراق ، وسمع ببغداد وبواسط ، ودخل عراق العجم وخراسان وما وراءه ، كل ذلك فى طلب الحديث والاجتماع بأئمته وأخذ عنهم^(٢) .

وأبو عوانة يعقوب بن إسحق النيسابورى طوف بالشام ومصر والبصرة والكوفة وواسط والهزار والجزيرة واليمن وأصبهان والرى وفارس ، فى طلب الحديث^(٣) .

ومحمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاوى كان رحالة يجوب بلاد الأندلس فى طلب الحديث^(٤) .

ولقد ذكر ابن خلkan أن سليمان الفلسطينى لقى فى الجزيرة والهزار

(١) المقدمة ٤٧٨ (٢) وفيات الأعيان ٤٨٢/١

(٣) وفيات الأعيان ٣٠٨/٢ (٤) وفات الوفيات ٢٢٦/٢

والبنين ومصر ألف أستاذ ، في اثننتين وعشرين سنة ، وأن تاج الإسلام
أبا سعد ورد ينابيع العلم في شتى الديار ، بلغ أستاذته أربعة آلاف .

وقد عثر الخطيب التبريزى على مجلدات من كتاب التهذيب للأزهرى ،
بعضها في حاجة إلى الضبط ، فقصد أبا العلام المعرى حاملا كتابه على ظهره ،
عاجزاً عن استئجار راحلة ، قاطعاً في سفرته من تبريز إلى المعرفة نحو ألف
كيلومتر ، لكنه لما بلغ أبا العلام وجد العرق قد نشع من الحقيقة إلى الورق
فكاد يتلفه كله .

وما زال الطلاب إلى الآن يغادرون أو طاولهم في طلب العلم ، لأن كثرة
الأساتذة ، وتنوع ثقافتهم ، يكفل للمتعلم ثقافة متنوعة .

٢ - على أن ابن خلدون أغفل آثار الرحلات الأخرى ، من تأثر
بأخلاق الأساتذة ، وبالبيئة الجديدة ، ومن الاطلاع على عادات نافعة ونظم
متنوعة ، ونقل الصالح منها إلى الوطن ، حيث يغرسه الطالب في بلاده نبتاً
سريعاً النماء ، طيب الآثار والمثار .

(١٠) المدرسون

١ - يقول إن العلماء أبعد الناس عن السياسة ومخالفتها ، لأنهم
اعتادوا النظر الفكري ، وتجريد الصور الذهنية من المحسات ، وقياس
الأمور على أشباهها ونظائرها ، ولأن آرائهم لا يتحقق أكثرها ، وإنما
تحقيق فروع منها ، وهي لا تتحقق إلا بعد الفراغ من البحث والنظر
والفرض والجدل .

أما السياسة فعتمددة على الحوادث الواقعة ، ولا يحسن فيها القياس ؛ لأن

أحوال العمران وإن اشتبهت لا ينقاس بعضها على بعض ، فربما اختلفت في أمور أخرى . لهذا إذا تولى أزمنتها العلماء أفرغوها في قوالب أنظارهم ، وأنواع استدلالهم ، فعمموا الأحكام ، وقادوا الأشياه ، فيقعون في الغلط ولا يؤمّن عليهم الزلل^(١) .

٢ - ويرى أنهم في الأعم الأغلب لا يقتلون ثروة ، ويسبّهم في ذلك العلماء والفقهاء وأصحاب الفتاوى والقضاء والإمامية والخطابة ، ودليله أن قيم الأشياء تختلف باختلاف الحاجة إليها ، وإذا كانت الأعمال ضرورية في العمران كانت قيمتها أعظم من الكمالية ، وأهل العلم والدين لا يضطر العامة إليهم ، وإنما يحتاج إليهم الخواص ، وهم أيضا أصحاب ثقافة وبضاعة شريفة ، فلا يخضعون لأهل الجاه حتى ينالوا منهم حظا يستدرؤون به الرزق ، بل إن أوقاتهم لا تفرغ لذلك ، لأنهم مشغولون بالقراءة والتأليف^(٢) .

٣ - والعلماء جبناء ، لأنهم أخذوا بالتأديب والتعليم منذ الصغر ، وهذا ينقص من بأسهم كثيرا^(٣) .

تعليق :

١ - يظهر أن أكثر العلماء في عصره لم تكن لهم طاقة بالسياسة والألاعيبها ، لأن التفكير عندهم أقوى من العزم ، أما رجال السياسة وال الحرب فيجب أن تغلب عزيمتهم تفكيرهم .

كانوا تأمليين ، يؤثرون الأخيلة والفرض على الحقائق ، ويعنون بالآراء النظرية أكثر من عنايتهم بتحقيقها ، ويقدمون الفلسف على التجربة

(١) المقدمة ١٠٦

(٢) المقدمة ٢٣٠

(٣) المقدمة ٤٧٩

والملاحظة ، وكانوا يهربون من تحمل التبعات ، ويرغبون عن المغامرة والصراع ، فهم أجدر بالأعمال المادّة والبحث العلمي والتفكير ، ولا يصلحون للأعمال التي تلائم الرجل النزوعي العملي ، كالتجارة والصناعة وال الحرب والسياسة .

أما في هذا العصر فإن العلماء والمعلمين قد يرون على أن يحكموا ويسيروا ويزاولوا أي شأن عمل ، لأن ثقافتهم ودراساتهم وتجاربهم غير ما كان عليه الحال في عصر ابن خلدون .

ومن عجب أن يعتقد ابن خلدون هذا الرأي ، وقد دعا أفلاطون إلى نقشه ، إذ قصر الحكم في جمهوريته على الفلاسفة .

٢ - وقد حاول أن يستكئنه السبب في فقر العلماء فوق كثiera ، ولا سيما إذا أضفنا إلى ما ذكر أنهم لا يمارسون التجارة والصناعة في الغالب وما ينبع ثروة ، وأنهم لا يرتكبون ربحاً أو مالاً من طريق غير مشروع ، وأن هذا الحكم يصدق في عصر الجهة كعصر ابن خلدون .

٣ - أما دعواه أنهم جبناء فقد سبق الرد عليها .

٤ - ولا شك أنه تأثر بحال المعلمين في عصره ، فهو يقول « التعليم لهذا العهد من جملة الصنائع المعاشرة البعيدة من اعتزاز أهل العصبية ، والمعلم مستضعف مسكن منقطع الجذم ، وإن التعليم في صدر الإسلام والدولتين لم يكن كذلك ، كان أهل الأنساب والعصبية هم الذين يعلمون كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلة والسلام ، إذ هو كتابهم المنزل على الرسول منهم ، وبه هدايتهم . . . فلما استقر الإسلام اشتغل أهل العصبية بالقيام بالملك والسلطان ، وشجخت أنوف المترفين وأهل السلطان عن التصدى للتعليم ،

واختص انتقامه بالمستضعفين ، وصار منتحله محقرآ عند أهل العصبية ،^(١) يتضح من هذا أن المتعلمين كانوا ذوى مكانة إلى الدولة العباسية ، وأنهم كانوا من ذوى العصبية والجاه ، وليس أدل على ذلك من تبجيل الخلفاء والأمراء لهم . ثم لما ضفت الأمة وتقشى فيها الجهل هبطت أقدار المعلمين ، وهل ينتظر أن تروج المصابيح بين العمي الذين لا يصررون ؟

وقد سبق الجاحظ إلى الدفاع عن المعلمين ، والرد على اتهام بعضهم بالحق ، فذكر أن المعلمين على ضربين : منهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد العامة إلى تعليم أولاد الخاصة ، ومنهم رجال ارتفعوا عن تعليم هؤلاء إلى تعليم أولاد الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة ، فكيف نستطيع أن نزعم أن مثل على بن حمزة السكاني ومحمد بن المستنير الذى يقال له قطرب وأشباه هؤلاء يقال لهم حمق ؟ لا يجوز هذا القول على هؤلاء ، ولا على الطبقة التي دونهم – يعني معلى أولاد الخاصة – فإن ذهبوا إلى معلى كتابة القرى ، فكيف نقول هذا القول في هؤلاء ، وفيهم الفقهاء والشعراء والخطباء مثل كثيـت بن زـيد ، وعبد الحـميد الـكاتب الخـ على أن لكل قـوم حـاشـية وـسـفـلة ، وليس المـعلمـونـ فيـ ذـلـكـ إـلاـ كـغـيرـهـ^(٢)

آثار العِلْمَ وَغَایَاتُهَا

درس العلوم دراسة مفصلة من حيث نشأتها وتطور التأليف فيها ،
وتهمنا من هذه الدراسة غایاتها :

- ١ - العلوم اللسانية أربعة : هي اللغة والنحو والبيان والأدب ، والغاية منها فهم الكتاب والسنة ، وصحة القراءة والكتابة والحديث ^(١) .
- ٢ - ونمرة علم البيان أن يساعد على فهم إعجاز القرآن ، لأن العرب كانوا أصحاب ملكات وأذواق في اللغة لقنوا بها إعجازه ، أما المستعربون فإنهم في حاجة إلى مقاييس يعرفون بها الإعجاز ، ويزنون أقداره ^(٢) .
- ٣ - ويقول إن القرآن يأخذ بدارسيه إلى ذروة البلاغة في الإنتاج الأدبي ، ويستدل على ذلك بأن شعر الإسلاميين أرفع من شعر الجاهلين ، لأنهم نشروا على أساليب القرآن وال الحديث ، فنهضت طباعيم ، وجادت قرائحهم ، وفانوا من قبلهم من أهل الجاهلية ، ولقد سألت يوماً شيخنا الشريف أبا القاسم قاضي غرناطة ، وكان شيخ هذه الصناعة : ما بال العرب الإسلاميين أعلى طبقة في البلاغة من الجاهلين ؟ ولم يكن يستنكر ذلك بذوقه ، فسكت طويلاً ، ثم قال لي : والله ما أدرى . فقلت : أعرض عليك شيئاً ظهر لي في ذلك ، أو لعله السبب فيه ؟ وذكرت له هذا الذي كتبته ، فسكت معجباً ، ثم قال : يافقيه ، هذا كلام من حقه أن يكتب بالذهب . وكان من

بعدها يؤثرني ، ويصيخ في مجالس التعليم إلى قولي ، ويشهد لي بالنباهة
في العلوم ،^(١)

٣ - أما الأدب فالغاية منه إجاده المنظوم والمنثور على أساليب
العرب ، والاطلاع على أيامهم وأنسابهم وأحوالهم عامة ، وذلك كله عنون
على فهم كلامهم وأساليبهم^(٢)

٤ - ونتحدث عن الغاية من كل علم سواء أكان من العلوم اللسانية
أم العلوم الشرعية أم من العلوم العقلية^(٣)

تعلمو

١ - الحق إن الذى لا يدرس علوم البلاغة ولا يتزود بالذوق الأدبي
يعجز عن تفهم أسرار بلاغة القرآن الكريم من حيث أسلوبه القوى
المجزل الرصين ، ومعناه الرفيع البديع ، وعدوته لفظه ونصاعته ، لكنه يعلم
أنه معجز ، لأن العرب عجزوا عن معارضته والإتيان بسورة من مثله ، وهذا
من العالم المتأدب جد قبيح .

على أن ابن خلدون أغفل مزايا العلوم اللسانية والبيان خاصة في إعانتها
على النظم الجيد والثر البارع ، وفي تربيتها الذوق وملكة النقد ، أو في
مساعدتها على الموازنة والمواضلة بين الشعراء والكتاب .

٢ - وحسن منه أن يعلل لرقة شعر الإسلاميين بأنها أثر من دراسة
القرآن والحديث . لكن كانت هناك عوامل أخرى ولا سيما بعد عصر صدر

(٢) المقدمة ٤٨٨

(١) المقدمة ٥١٠

(٣) المقدمة ٤٠١ - ٣٦٥

الإسلام ، أى في عصر جرير والفرزدق ، وبشار ، وصدر الدولة العباسية كامثل ابن خلدون ^(٤) ، منها البيئات الجديدة ، والحضارة الناشئة ، والمدنيات المغلوبة غالبة ، والعلوم والثقافات المختلفة ، وطبيعة الترقى والتطور ، والتشجيع والمنافسة الخ كانت هذه كلها كوثرًا نميرًا أهل منه الأدب فاختضل ، وأثمر ، وآتى أكمله عذبا شهيا .

٣ - على أن ابن خلدون قد اتخذ العلوم والصناعات وسائل للكسب والنفع المادى في الغالب ، متأثرًا بنزوعه العملى ، وعقله التجربى . فلقد قدم العيش الضرورى على الصناعة والعلم ، ثم قدم الصناعة المختصة بالعيش كالحياكة والنجرارة على المختصة بالأفكار كالغناء والشعر والتعليم . وهو بذلك يقدر العلوم والصناعات بقيمتها المادية ، ويهمل آثارها في تهذيب الخلق ، وترقية الوجدان ، وإرهاص العقل .

تعليم البنات

لم يشر ابن خلدون إلى تعليم البنت ، بل لقد أغفلها في حديثه عن المنزل والصناعات ، وخصص مباحث طوالا للدراسة البوادي ، وشرح الصناعة ، وبيان أنواع العلوم ، وفروعها ، وأطوار رقيها ، وأشهر مؤلفاتها في الشرق والغرب ، لكنه لم يذكر المرأة مرة واحدة ، أو يلحظها لحظة عابرة .

على أن الإسلام فسح مجال العلم للذكور والإإناث ، وفي ظلال الإسلام ذاعت شهرة كثيرات من العلامات والأديبات والفقيرات وراويات الشعر

والغنيات، وقد سمع الإمام الشافعى الحديث من نفيسة بنت أبي محمد الحسن ابن زيد بن الحسن بن على^(١).

ثم كان منهن معلمات ذوات منتديات كسكنية بنت الحسين ، ومؤنستة الأيوبية ، وشامية التيمية ، وزينب البغدادية ، والعروضية ، وشهدة الكاتبة . على أن المرأة التونسية – وتونس وطن ابن خلدون – كانت قد اشتهرت في عصر الإسلام الذهبي بحسن الإنتاج ، ودماثة الخلق ، ولدين العريكة ، والاستعداد للقيام بالأعمال ، حتى قال أبو عثمان الدلال : إن أعلى مثل للجارية أن تكون من أصل ببرى ، قد فارقت بلادها في التاسعة من عمرها ، ومكثت بالمدينة ثلاثة سنوات ، ثم ثلاثة بعده ، ثم نزحت إلى العراق في السادسة عشرة ، فإذا ما يعت في الخامسة والعشرين كانت قد جمعت بين جودة البربريات ، ودلال المدنيات ، ورقة المكيات ، وثقافة العراقيات^(٢) .

إذاً كانت المرأة المسلمة جديرة بالتعليم ، وقد أتيحت لها الفرصة فاتهنتها ، والمرأة التونسية صالحة للتعليم ، قابلة للصوغ والتشكيل ، مستعدة للفهم والتفوق ، فكيف جاز لابن خلدون أن يغفل عن تربية المرأة وتعليمها ؟ ولست أونق بالباعث على هذا الإهمال ، وأرجح أن الركود الذهني الذي كان يغمر العالم الإسلامي في عصر ابن خلدون قد صرفه عن المرأة إلى الرجل . وليس يبعد أن كانت النساء على عهده مكاسبيل جواهل ، ولا سيبا في المغرب ، فلم يسترعين تفكيره وعذاته . على أنا كنا نرتقب

(١) وفيات الأعيان ٢ / ١٦٩

(٢) صحي الإسلام ١ / ٨٦

من علامتنا الاجتماعي الفذ أن يخرج على أوضاع معاصريه ، فيعني بتربية النساء و تعليمهن ، ويرسم الخطة المثلى للعالم الإسلامي في وظيفة المرأة ، وما يليق لها من العلوم والأعمال . وكنا نرتفع منه أن يجهر برأيه إذا كان لم يأنس نفعاً في تعلم النساء ، ولم ير حاجة إلى تنقيفهن أو تعليمهن صناعة ، لأنهن خلقن للبيوت وجر الذيول ، أو لأنهن غير صالحات للتبوغ والتفوق كما ذهب روسو وشو بنهور .

ومهما يكن من شيء فإن هذه الفروض كلها أو بعضها لا تنجيه من النقد .

وقد ذهب أفلاطون إلى أن تعلم البنات ما يعلم الذكور ، ودعا ابن سينا إلى تعلم المرأة قبل عصر ابن خلدون .

آراء في علم النفس

في المقدمة آراء في علم النفس منشورة ، رأيت أن أجمع بعضها إلى بعض ، كما سبق في دراسة البيئة الطبيعية والاجتماعية ، وأن أعرضها ، وأأشفع إليها التحليل والموازنة

دراسة النفس ضرورية للمربيين

يرى أنه يجب على من يتصدرون لتعليم النشء أن يدرسوها طبيعة الفكر ، وتطوره من الحداثة إلى الكبر ، ليسروا العقل فيما يقررون من علوم ، وليجاروا قدرة المتعلم في القدر الذي يعلمونه إياه ، فيتدرجون به شيئاً فشيئاً ، ويقربون له الشرح على سبيل الإجمال ، مراعين قوّة عقله واستعداده لقبول ما يلقون عليه^(١)

تعليمه

أسلفت في (الطريقة المثلثي للتعليم) ان هذا الرأى مجمع عليه من المربيين المسلمين وغيرهم.

على أن ابن خلدون لم يرض طريقة المعلدين في عصره ، لأنهم « يجعلون طرق التعليم وإفادته ، ويحضرون المتعلم في أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم ، ويطالبونه بإحضار ذهنه في حلها ، ويحسبون ذلك من أدنى على التعليم

وصواباً فيه . . . ويخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مبادئها ،
و قبل أن يستعد لفهمها . . . ^(١) .

وقد ندد مورثين بمعلى عصره (القرن السادس عشر) تنديداً يشبه ما قاله ابن خلدون : « ما أشبه المعلمين في هذا الزمان بـكبار الطير ، تذهب إلى الحقول ت نق卜 فيها عن طعام لصغارها ، فتجمع من هنا وهناك كل ما صادفها ، حتى إذا ماملاًت مناقيرها بالخب عادت فـألقته في مناقير أولادها ، من غير أن تذوق له طعماً . فـالمعلمون اليوم كذلك ينقبون في الكتب ، ويجمعون منها مسائل العلوم والفنون ، من غير تمييز بين ما يفيد التلميذ منها وما لا يفيده ، ثم يضعونه على أطراف ألسنتهم ، حتى إذا صاروا بين التلاميذ تفلوه بهم ، وكفواهم حفظه وإعادته .. فـهـم بذلك يشجعوننا على الاستجدام ونحن أغنياء ، ويدربوننا على أن نملأ أعيننا من أشياء غيرنا ، ونترك أشياءنا مجحفة مهملة » ^(٢) .

الملَّكات

ذهب ابن خلدون إلى أن إجادـة مـلـكتـين في آن واحد أو في وقتـين أمر مستحيل أو مـتعذر ، سواء في ذلك الصناعـات والـعلوم ، « ومـثال ذلك الخـاطـ إذا أـجادـ مـلـكةـ الخـياـطةـ وأـحـكمـهاـ وـرسـختـ فيـ نـفـسـهـ فـلاـ يـجـيدـ بـعـدـهاـ مـلـكةـ النـجـارـةـ أوـ الـبـنـاءـ ، إلاـ أنـ تـكـونـ الـأـولـىـ لمـ تـسـتـحـمـ بـعـدـ ، وـلـمـ تـرـسـخـ صـبـغـتهاـ ^(٣) ، وـلـاـ تـقـعـ إـلـاـ جـادـةـ فـنـ المـنـظـومـ وـالـمـثـورـ مـعـاـ إـلـاـ لـلـأـقلـ ، لأنـ الـبـيـانـ مـلـكةـ فـيـ الـلـسـانـ ^(٤) . »

(٢) تاريخ التربية ٢٥٤

(١) المقدمة ٤٧١

(٤) المقدمة ٥٠١

(٣) المقدمة ٣٣٩

ويعلل لذلك بأن الملائكة صفات للنفس وألوان ، فلا تزدحم دفعه ، ومن كان على الفطرة كان أسهل قبولا لها وأحسن استعداداً لخضوها ، فإذا تلونت النفس بالملائكة الأخرى ، وخرجت عن الفطرة ضعف فيها الاستعداد لقبول ملكه أخرى . وهذا بين يشهد له الوجود ، فقل أن نجد صاعب صناعة يحكمها ثم يحكم أخرى بعدها ، ويكون فيما على رتبة واحدة من الإجادة . وكذلك أهل العلم أصحاب الملائكة الفكرية ، فإن من حصل منهم على ملكة في علم قل أن يجيد ملكة علم آخر على نسبة الأول ، إلا في الأقل النادر ^(١) . والذين كانت لهم سابقة في العجمة لا يبرعون في اللسان العربي وإن تعلموه وعلموه ، كالفرس والبربر والروم والإفرنج ^(٢) . فهو يرى أنه من النادر أن يجيد شخص واحد صناعتين ، أو يتقن لغتين ، أو يبرع في علمين .

تعليق :

صدر ابن خلدون في هذا الرأي عن بعض القدامى الذين قسموا العقل إلى عدة قوى سموها ملائكت ، من يوانان وعرب ، وبقيت هذه الفكرة إلى زمن قريب . فعرفها (همilton) و (لينتنز) بأنها نوع خاص من الإدراك بسبب العمل العقلي . وتوسع (لوك) فافتراض لكل عمل عقلي ملكة خاصة ، وتبعه كثير ، فقالوا ملكة الخلقية ، والملائكة المميزة ، وملائكة التصور . وقال (فروبل) ملكة الكلام . وهذا هو الذي ذهب إليه ابن خلدون ، فإنه قال ملكة الحساب ، وملائكة اللغة ، وملائكة التجارة ، وملائكة التعليم الخ .

لكن ابن خلدون رأى أن الملائكة مكتسبة ، وبعض المحدثين من المذكرين رأوا أنها هبات موروثة لا تكتسب ولا تعلم ، فمن وهبه الله ملائكة الحفظ كان حافظا ، ومن وهبه الله ملائكة الذكر كان ذكورا ، ومن منحه الله ملائكة التخييل كان شاعرا أو قصاصا أو أديبا .

ورأى ابن خلدون أن قوة ملائكة لا تقوى الأخرى ، ورأوا أن تقوية ملائكة في ناحية يقويها في سائر النواحي ، ويقوى غيرها . ولكن الفلاسفة وعلماء النفس المحدثين على أن العقل وحدة لا تتجزأ ، فقد أرجع (كانت) إلى الإدراك وحده كل أعمال العقل ، وقرر (ديكارت) أن العقل وحده هو الذي يدرك ويبيع ، لهذا أثبت وجوده بقوله (أنا أفك ، أنا موجود) لأن الفكر هو المظاهر الذي يشعر الكائن الحي بوجوده ، والعقل عنده وحدة .

وقرر علم النفس أن العقل وحدة كاملة لا يمكن تجزئتها ، ولا تقسيمها إلى قوى ، وأن أعماله متصلة مترابطة ، وأن تمرير ملائكة واحدة وتقويتها في ناحية معينة يقويها في هذه الناحية وحدها ، ولا يحدث أى تغيير جوهري في النواحي الأخرى لهذه الملائكة أو غيرها ، ونلاحظ أن علم النفس الحديث حينما يقول ملائكة لا يقصد إلا التسامح والتسهيل لا بمحاراة الرأي القديم .

ولقد قام العلامة (ثورنديك) بتجارب أثبتت له أن الملائكة الواحدة قد تقوى في فرع من ناحية ثم لا تقوى في أشباه هذا الفرع

وإذا فلمن النفس الحديث مع ابن خلدون في أن تقوية ملائكة لا يؤدي إلى تقوية أخرى ، ومخالفه في تقسيمه للأعمال العقلية إلى ملائكة منفصلة منعزلة ، لهذا لا يرى أنه من العسير على شخص أن يجد صناعتين أو علين

في آن واحد ، أو في آونتين متعاقبتين .

وقد يكون ابن خلدون على حق في أن الإنسان لا يجيد ملكتين على السواء ، وإن أجادهما على تفاوت . فالكثير الغالب أن يجيد الشخص في ناحية ويرز فيها ، قال بحترى وأبو نواس والمنبي أجادوا الشعر وحده ، وابن زيدون شاعرًا أعظم منه كاتبا ، وكذلك شوقي . وسعد زغلول خطيباً أعظم منه كاتبا .

و(شوبر) الموسيقى البارع كان لا يحسن غير الموسيقى ، و(لابلاس) أعظم رياضي في عهد نابليون أخفق في إدارة العمل الذي وليه ، و(نيوتن) المفكر العظيم أخطأ خطأً مضحكاً ، فقد كان له قطتان يعتز بهما ، ويأنس بروقيتهما في مكتبه ، وفكرة في طريقة تيسير عليهما الدخول والخروج بغير أن يقوم ليفتح لها الباب ، ففتح فيه ثغرين صغيرتين وكثيرة لكل منها ، ثم أدرك خطأه ، واكتفى بالكبرى لأنها تصلح لها على التعاقب .

العقل الجماعي

١ - شبه الجماعة بالفرد في نهضتها وسقوطها وأسباب كليهما . وقال إن أفكار الأفراد مجتمعة هي أفكار المجتمع ، وإنتاجهم العام هو إنتاجه ، ومثال نمو الدولة وأطوارها بنمو الفرد وأطواره .

٢ - وإن اعتمد زعم المنجمين أن العمر الوسط للإنسان مائة وعشرون سنة فقد قاس عليه عمر الدولة ، ورجح أنها لا تمر أكثر من ذلك . وقال إن هذا العمر يحصر ثلاثة أجيال ، والجيل أربعون سنة ،

لقوله تعالى (فإنها حرمـة عـلـيـهـم أربعـين سـنـة) ليشبـهـم جـيلـ قـويـ صالحـ،
ويفـنىـ هذاـ الجـيلـ الـضـعـيفـ الطـالـحـ^(١).

إذاً فالجماعة كالفرد في نشأتـها ونـوـها وأـطـوارـها وأـرـاءـها وأـعـمارـها.

٣ - ونـسـبـ إلىـ فقدـانـ الفـردـ حـسـبـهـ أـسـبـاـبـاـ جـعـلـهـاـ نـفـسـهـاـ هـىـ الـتـىـ تـسـقـطـ
الـدـوـلـةـ ، فـرـأـسـ الـأـسـرـةـ وـبـاـنـ مـجـدـهـاـ هـوـ الـحـفـيـظـ عـلـىـ بـنـأـنـهـ ، الـحـرـيـصـ عـلـىـ
نـمـائـهـ وـبـقـائـهـ ، وـابـنـهـ يـشـبـهـهـ ، وـلـكـنـهـ أـقـلـ مـنـ حـرـصـاـ ، لـأـنـهـ لـمـ يـعـانـ
مـاعـافـيـ أـبـوـهـ ، وـحـفـيـدـهـ مـتـرـسـمـ طـرـيقـهـ مـقـتـفـ أـثـرـهـ ، يـقـلـدـ وـلـاـ يـتـدـعـ ، فـهـوـ
أـقـرـبـ إـلـىـ التـقـصـيرـ مـنـ سـلـفـهـ ، ثـمـ اـبـنـ الـحـفـيـدـ أـعـظـمـ مـنـ هـؤـلـاءـ تـقـصـيرـاـ ،
وـأـعـظـمـ اـقـتـنـاعـاـ بـأـنـ هـذـاـ الـمـجـدـ جـاءـهـ طـوـعاـ ، وـأـنـهـ حـقـ لـهـ ، لـاـ يـجـوزـ أـنـ يـطـيرـ
عـنـهـمـ ، فـلـاـ يـوـطـدـ دـعـائـهـ ، وـلـاـ يـقـرـبـ إـلـيـهـ أـعـواـنـاـ وـأـنـصـارـاـ ، وـهـنـاـ يـنـهـارـ عـلـىـ
يـدـيهـ مـاـ بـنـيـ أـوـأـنـهـ .

وبـمـثـلـ هـذـاـ تـطـورـ الـدـوـلـةـ وـتـسـقـطـ ، لـأـنـ الـجـيلـ الـأـوـلـ أـقـرـبـ إـلـىـ
الـبـداـوـةـ وـخـشـونـتـهاـ ، فـهـمـ أـهـلـ غـلـبـ وـبـسـالـةـ وـمـسـارـعـةـ إـلـىـ الـمـجـدـ . وـالـجـيلـ الـثـانـيـ
مـتـرـفـ ، يـكـلـ أـمـرـهـ وـبـنـاءـ مـجـدـهـ إـلـىـ رـئـيـسـهـ ، فـهـوـ ضـعـيفـ مـتـواـكـلـ ، وـلـكـنـ
قـرـبـهـ مـنـ الـجـيلـ الـأـوـلـ يـحـفـزـهـ إـلـىـ الـاعـتـزـارـ بـمـيرـائـهـ . أـمـاـ الـجـيلـ الـثـالـثـ فـإـنـ
غـضـارـةـ النـعـيمـ وـخـفـضـ الـعـيـشـ ، وـاستـفـاضـةـ الرـفـهـ ، وـاعـتـيـادـ الـخـضـوعـ ، كـلـ
أـوـلـئـكـ يـفـقـدـهـ صـفـاتـ الـرـجـولـةـ ، وـمـؤـهـلـاتـ الـمـلـكـ ، فـلـاـ هـوـ بـالـبـانـ ، وـلـاـ هـوـ
بـالـحـامـىـ لـمـاـ وـرـثـ ، وـهـنـاـ يـضـطـرـ صـاحـبـ الـأـمـرـ إـلـىـ الـاسـتـنـصـارـ بـالـجـنـيـبـ ،
وـالـاسـتـكـثـارـ مـنـ الـمـوـالـيـ ، وـاصـطـنـاعـ مـنـ يـظـنـهـ أـزـرـاـ وـولـيـاـ ، فـتـسـقـطـ الـدـوـلـةـ ،
وـيـدـرـكـهـاـ الـفـنـاءـ^(٢).

تعليق :

لم يوفق ابن خلدون في قياسه الجماعة على الفرد ، لأن الجماعة صارت بالجمع ذات عقل جمعي خاص ، له ميزاته وخصائصه التي تغایر العقل الفردي . فعقول الأفراد في المجتمع كالعناصر التي تتحد اتحاداً كيميائياً ، فتصير مركباً جديداً ، له صفات غير صفات أجزاءه التي ركبتة . « وسبب ذلك انضمامهم وصيرورتهم جماعة واحدة ، ومن الأفكار والمشاعر ما لا يتولد أو يتحول فيخرج من القوة إلى الفعل إلا عند الفرد في جماعة ، فالجماعة ذات عارضة مؤلفة من عناصر مختلفة ، اتصل بعضها بعض إلى أجل ، كخليلات الجسم الحي التي ولدت باتصالها ذاتاً أخرى ، لها صفات غير صفات كل خلية منها »^(١) .

وحتى على فرض أن الفرد يستطيع أن يُسْبِّه مختاراً في إيجاد بعض الانفعالات الاجتماعية فإن الحالة النفسية التي يشعر بها في الجماعة مغايرة لما يشعر به منفراً ، ولذا إذا انقض الجماع ، وكَفَت العوامل الاجتماعية عن التأثير فينا ، ووجد كل امرئٌ مينا نفسه وجهاً لوجه فإن العواطف التي مرت بشعورنا قبيل ذلك تبدو لنا غريبة ، إلى حد أنها لانكاد نصدق أنها قد مرت بشعورنا فعلاً . ومن الممكن جداً أن يندفع بعض الأفراد المسلمين كل المسالمة إلى القيام بأعمال همجية متى وجدوا في الجماعة .

وينطبق هذا الانفجار الاجتماعي المؤقت على حركات الرأي العام الأكثـر دواماً ، أي على التيارـات الاجتماعية التي تحدث في البيئة دون

انقطاع ، أو التي تنشأ في المجتمع كله أو في بعض دوائره الضيقة التي تمس العقائد الدينية والسياسية ، أو التي تتعلق بالأراء الأدبية والفنية وغيرها ،^(١)

الفطرة

لابن خلدون في فطرة الطفل ثلاثة آراء متضاربة ، أو على الأقل يتضارب الأولان منها والثالث :

١ - يقول إن أهل البايدية أقرب إلى الخير من أهل الحاضرة ، لأن نفوسهم وهي على الفطرة استبقيت إليها عوامل الخير فقررتها من الخير ، أما الحاضر فقد أسرعـتـ إـلـيـهـمـ عـوـاـلـمـ الشـرـ فأـدـتـهـمـ مـنـ الشـرـ ، ويـسـتـدـلـ عـلـىـ ذـلـكـ بـقـوـلـهـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ : «ـ كـلـ مـوـلـودـ يـوـلدـ فـيـ فـطـرـةـ ، فـأـبـوـاهـ يـهـوـدـانـهـ أـوـ يـنـصـرـانـهـ أـوـ يـمـجـسـانـهـ ،^(٢) ». وموجز رأيه في هذا الفصل أن فطرة الطفل نقية ، خلية من الشر ومن الخير على السواء .

٢ - ثم يقول بعد ذلك بثلاث صفحات «اعلم أن الله سبحانه رب في طبائع البشر الخير والشر ، كما قال تعالى : «ـ وـ هـ دـيـنـاهـ النـجـدـيـنـ ، وـ قـالـ : «ـ فـأـهـمـهـماـ بـخـورـهـاـ وـتـقـواـهـاـ »ـ . والشر أقرب الخلل إلى الإنسان إذا أهمل في مراعي عاداته ، ولم يهذبه الاقتداء بالدين ، وذلك شأن الأكثرين إلا من عصم الله ووفقه . ومن أخلاق البشر الظلم والعدوان ، فمن امتدت عينه إلى متعاج أخيه امتدت يده إلى أخيه ، إلا أن يصده وازع ، كما قيل : «ـ وـ الـظـلـمـ مـنـ شـيـمـ النـفـوـسـ فـإـنـ تـجـدـ ذـاـ عـفـةـ فـلـعـلـةـ لـاـ يـظـلـمـ^(٣) »ـ

(١) قواعد المنهج في علم الاجتماع ٢٦

(٢) المقدمة ١٠٧

(٣) المقدمة ١٠٣

فهو هنا يقرر أن الإنسان بفطرته أقرب إلى الشر نزاع إليه ما لم يهذب
بردع حاكم أو زجر وازع أو تأثير دين .

٣ - ثم يقول إن الإنسان أقرب إلى خلال الخير بأصل فطرته ،
وقوته الناطقة العاقلة ، لأن الشر إنما جاءه من قبل القوى الحيوانية التي فيه ،
وأما من حيث إنه إنسان فهو إلى الخير وخلاله أقرب ^(١) .
وهو هنا يرى أن الإنسان أميل إلى الخير بطبيعته .

نعلمي :

من التعسف أن نحاول التوفيق بين هــذه الآراء ، لأنها متعارضة
متناقضـة .

والحق إن الطفل يولد كالصفحة البيضاء ، لم يسطر فيها خير ولا شر ،
ولكنه مستعد لها جميعاً ، قال تعالى « وَهُدِّيَّاهُ النَّجْدَيْنِ » ، أي هدىناه إلى
طريق الخير والشر . وقال « وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا جُورُهَا وَتَقْوَاهَا » ،
وقال صلـى الله عليه وسلم « كــل مولود يولد على الفطرة ، وأبواه يهــودانـه
أو ينصرانـه أو يمجسانـه ، .

وهذا ما يقره العلم ، لأن الطفل يستهل على العالم ولــه غــائزـه ونزاعـه
وميولـه ، وكلــها قابلــة للتشــكــل والتــأثر .

وذلك أيضاً ما رأــه الغــزالــي ، فقد قال : « كــل مولود يولد معــتدلاً صــحيــحــاً
الفــطــرــة ، وإنــما أبواه يهــودانــه أو ينصرانــه أو يمجسانــه ، والصــبــي بــجوــهــه خــلقــه
قابلــاً للــخــير والــشــر جميعــاً . وبالــاعــتــيــاد والتــعــلــم تــكــتــســبــ الرــذــائلــ . والــصــبــي
أــمــاــة عــنــد وــالــدــيــه ، وــقــلــبــه الــطــاهــرــ جــوــهــرــة نــفــيــســة لــكــل مــا نــقــشــ ، فــإــن عــوــدــ

الخير وعلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة ، وإن عُود الشر وأهمل إهمال البهائم شقى وهلك .

ولقد هدم روسو رأى المربين في عصره ، والدينين في دهره ، الذين ذهبوا إلى أن الطفل شرير بطبعه ، وأن المربi هو الذي يرشده إلى الخير ويجعله الشر ، فقرر في مطلع كتابه (إميل) ، أن الله لا يخلق إلا الجميل الخير ، والبديع الشّرّ ، وقد خلق الطفل جيلاً نقياً ، فصيّره الإنسان دميماً زرياً . ومن قوله نعلم أنه يعتقد الخير في الفطرة ، ويجد الشر عارضاً عليها ودخلاً .

الذوق اللغوي

١ - يقول إن كلمة الذوق يتداوّلها الدارسون لفنون البيان ، ومعناها حصول ملكة البلاغة للسان ، ويشرح ذلك ، ففهم من شرحه أن الذوق اللغوي هو القدرة على إبراد الكلام مطابقاً لمقتضى الحال ، وأنه القدرة على تمييز جيد الكلام من ردئه ، وبليغه من ركيكه « فإن سمع تركيباً غير جارٍ على ذلك المنحى مجّه ، ونبا عنه سمعه بأدنى فكر بل بغير فكر ، إلا بما استفاده من حصول هذه الملكة ، لأن الملّكات إذا استقرت ورسخت في محالها ظهرت كأنها طبيعة وجبلة لذلك المحل . ولذلك يظن كثير من المغفلين من لم يعرف شأن الملّكات أن الصواب للعرب في اغتنام إعراباً وبالغة أمر طبيعي ، ويقول كانت العرب تنطق بالطبع . وليس كذلك ، وإنما هي ملكة لسانية في نظم الكلام تمسكت ورسخت ، فظهرت في بادئ الأمر أنها جبلة وطبع .»

٢ - ويشرح تربية الذوق بأن ملكته تحصل بمارسة الكلام العربي

وتكرره على السمع ، والتقطن لخواص تركيبه ، وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية التي استنبطها أهل صناعة اللسان ، لأن هذه القوانين تفيد عملاً بذلك اللسان ، ولا تفيد حصول الملكة .

٣ - ويقرر أن الذوق أمر وجداني ، غير خاضع لقوانين ، فلقد ي Steele طرف الإنسان شيئاً ، ثم يعجز عن بسط الأدلة على استطرافه « وإذا عرض عليه الكلام حائداً عن أسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم أعرض عنه وبجهه ، وعلم أنه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم ، وربما يعجز عن الاحتجاج لذلك ، كما يصنع أهل القوانين النحوية والبيانية ، فإن ذلك استدلال بما حصل من القوانين المستفادة بالاستقراء ، وهذا أمر وجداني حاصل بممارسة كلام العرب حتى يصير كواحد منهم »^(١)

تعليق :

ذهب ابن خلدون إلى أن الذوق يكتسب بالسماع والمرانة ، ولكن علم النفس الحديث يقرر أنه استعداد فطري مكتسب ، فهو موهبة فطرية طبيعية منحها الله كل إنسان ، ولكن للتربيـة والتجارب شأن كبير في تقويتها^(٢) فالقرىحة الخصبية ، والذهن الصافي ، والخيال المنطلق ، والميل إلى براعة التعبير كلها صفات موروثة ، ثم يأتي التهذيب والتعليم والفرص المواتية فينمو الذوق ويسـمو .

ويتفق علم النفس مع ابن خلدون في أن الوجدان أهم عنصر من عناصر الذوق ، وأن للبيئة والتربيـة أثراً قوياً في نموه ، وأن الأدب أعظم مواد

(١) المقدمة ٤٩٥ ٦٤٨٨ ٦٤٩٣

(٢) في علم النفس ٣/٣٤٧

الدراسة أثراً في ترتيبته ، على أن تكون نماذجه مختارة متدرجة مع السن ،
مشروحة شرعاً يكشف عن جماليتها وروعتها . ثم يحاكيها المتعلم فيها ينظم أو
يكتب^(١) . ثم تستقل شخصيته بعد ذلك .

الإيحاء

تكلم ابن خلدون في علم الطب ، ثم قرر أن الطب المنقول في الشرعيات
ليس من الوحي ، وإنما هو على غرار طب البايدية ، المستند إلى التجارب ،
المعتمد على الأعم الأكثر . ثم قال إن الطب الوارد في الأحاديث النبوية
ليس مشروعاً ، ولكن يشق إذا كان الباعث على المعالجة به التبرك وصدق
النية ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم إنما بعث ليعلمنا الشرائع ، ولم يبعث
لتعرينا الطب ،^(٢)

ومن الإيحاء أيضاً التأثير بالهمة من غير آلة ولا معين ، وهذا ما تسميه
الفلسفه السحر ، ونوع قائم على التأثير بمعين من مزاج الأفلاك أو العناصر
أو خواص الأعداد ويسمى الطلسات ، ونوع يؤثر بالتصرف في الخيال
ويوحى إليه بالصور المقصودة ، فينظر الراءون كأنها في الخارج ، ولا شيء
من ذلك ، وهذه هي الشعوذة ، ومن هذه التأثيرات النفسية الإصابة
بالعين^(٣)

تمهيد

١ - بني ابن خلدون نجاح العلاج أحياناً على التبرك وصدق النية ،
وهذا ضرب من الإيحاء ، لا شك في أنه يشق الأمراض الجسمية والنفسية

(١) في علم النفس ٣٥٩ (٢) المقدمة ٤١٤ (٣) المقدمة ٤١٦

أحياناً ، وكثير من العلماء النفسيين يعالجون الآن بالإيحام . يقول العلامة مكدو جل « إن الإيحام وسيلة لنشر الآراء والمعتقدات » ، وهذا حق ، لأن في كل مما ميلا فطريا إلى تصديق ما يسمع ، ولكن هذا الميل مختلف تبعاً لقدرة الموحى ومكانته في النفس ، وتبعاً لنفسية الموحى إليه .

وإن الإنسان ليكون أسرع تأثراً بالإيحام إذا جاءه من جهة جديرة بالطاعة كالمدرس والطالب ، والطبيب والمريض ، والشخص ونفسه ، فالذى يوحى إلى نفسه أن صحته معتلة سرعان ما يحس بالتعب ، والذى يوحى إلى نفسه أنه مريض كثيراً ما يمرض .

وفي أوروبا اليوم علاج يعتمد على الإيحام ، فإن مئات الألوف يحجون إلى مدينة (لورد) كل سنة ، وهى مدينة صغيرة في الجنوب الغربى من فرنسا ، بها ينبوع مياه معدنية ، زعموا أن العذراء مريم ظهرت لإحدى فتياتها فى سنة ١٨٥٨ واسمها (برنار特 سوبروس) ، فلما قصت قصتها على الناس أنشروا بذلك المدينة كنيسة للعذراء أصبحت كعبة المرضى ، وأقبل عليها الناس بالبذور يتغرون الشفاء . وقد يما اشتهر ابن سينا بالعلاج النفسي .

٢ - ومن عجب أن يدلل ابن خلدون على وقوع السحر بأدلة ، منها أن النبي سُحْر ، وإن كان قد ذهب إلى هذا بعض المفسرين ، لكنهم لم يصيروا في تفسير الآية الكريمة « ومن شر التفاثات في العقد » . ثم أورد حوادث شاهدها بنفسه ، منها أن بالغرب صنفاً من منتحلٍ هذه الصناعة يسمون البعاجين ، كانوا يشيرون إلى الكسائم أو الجلد فيتمزق ، ويُشيرون إلى بطون الغنم بالبعج فتنبِّعُ وتتَّحرُّق . والعلم لا ينكر السحر ، على أنه خفة في الحركة ، ومهارة في ستر العمل ، أو انتفاع بخصائص المواد ، أو التويه ،

وهو ضرب من الشعوذة . أما السحر على أنه تأثير في العالم وتجهيه للقوى ، فالعلم ينكره .

أما العين التي تستحسن المرئ وتقرض في استحسانه ، وتنمي سلب الحسن من مكانه ، فتؤثر فيه بالفساد ، فهي إن صحت نوع من الإيجام . لكن ابن خلدون عزا إليها أكثر ما لها ، ونقل قولهم « القاتل بالسحر أو بالكرامة يقتل ، والقاتل بالعين لا يقتل »^(١) .

التعلم طبيعة

يرى أن التعلم طبيعة في الإنسان ، لأنه امتاز من الحيوان بالفَكِرِ الذي هدأه إلى الاجتماع والتعاون ، ومن ينبع هذا الفكر تفجر عيون العلوم والصناعات ، وينشأ الباعث إلى الاستزادة من المعرفة ، بالرجوع إلى السابقين في العلم ، المتفوقيين في المعرفة^(٢) .

تعلمين

حقاً إن العلم والصناعة من آثار الاجتماع ، وإن غريزة الاستطلاع وحب المعرفة تظهر في سؤال الصغار للكبار ، والاطلاع على تجارب من سلفوا . ولا تقف غريزة الاستطلاع عند هذا الحيط الذي رسمه ابن خلدون ، بل تتجاوزه إلى آفاق أخرى ، فهي التي تأخذ بالإنسان إلى تعرف ما يحيط به ، واختباره وفحصه ، والسؤال عنه ، والحكم عليه ، ومن هنا تنبت الفلسفة كما يقول مكدو جل . وهذه الغريزة هي بذور الفحص والبحث كما يقول وودورث^(٣) .

الأحلام

١ - يرى أن في الإنسان روحًا عاقلاً يدرك جميع ما في العالم ، لأن الإدراك حقيقته وذاته ، فهو نفحة من الله ، وقبس كاشف ، لا يتقييد بزمان ولا مكان ، ولكن حبسه في البدن ضرب حوله نطاقاً من المادة ، فعد إدراكه بحدودها ، فلم يتطلع إلى ما وراء سجنه ، ولم يدرك إلا ما أمامه ، ولم ير إلا ما يقع لديه ويحدث ، فالروح لا تستشرف الغيب ؛ لأن الجسم كلها وقيدها .

ولكن الجسم وحواسه تضعف في النوم ، فتنتهر الروح هذه الفرصة ، وتلوذ بعالمها الفسيح ، وتتجرد عن البدن قليلاً ، وهنا تدرك من عالم الغيب لحظة ، على قدر تحردها وحريتها، ثم تلقى ما أدرك إلى الخيال ، ليصوّره بالصورة المناسبة لها ، ويدفعه إلى الحس ، فيراه النائم كأنه محس ، وبذا يتنزل المدرك من الروح إلى الحس على جناح الخيال .

ويرى أن الرؤيا وأضغاث الأحلام تتفقان في أن كاتبها صور في الخيال في أثناء النوم ، وتحتليان في أن الرؤيا صور خيالية منزلة من الروح ، أما الأضغاث فصور أودعها الخيال في الحافظة منذ اليقظة ^(١) .

٢ - وللرؤيا علم تعبير وتفسير ، ذلك بأن الرؤيا ثلاثة أنواع : رؤيا من الله ، ورؤيا من الملك ، ورؤيا من الشيطان . فالرؤيا التي من الله هي الصريحة التي لا تفتقر إلى تأويل ، والتي من الملك هي الصادقة التي تفتقر إلى تعبير ، والتي من الشيطان هي الأضغاث .

وَهِينَ يُلْقِي الرُّوحُ إِلَى الْخَيَالِ مَا أَدْرَكَ فَإِنَّمَا يَصُورُهُ فِي قَوَالِبِ قَدْ أَدْرَكَهَا
الْإِنْسَانُ إِدْرَاكًا حَسِيبًا مِنْ قَبْلِ ، لِذَلِكَ لَا يَصُورُ خَيَالًا الْأَعْمَى السُّلْطَانَ بِالْبَحْرِ ،
وَلَا الْعُدُوَّ بِالْحَيَاةِ ، وَلَا النِّسَاءَ بِالْأَوَافِ ، لَأَنَّهُ لَمْ يُدْرِكْ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ ، وَإِنَّمَا
يَصُورُ لَهُ خَيَالًا بِالْمَسْمُومَاتِ وَالْمَشْمُومَاتِ . وَعِلْمُ التَّعْبِيرِ عِلْمٌ بِقَوَافِيْنِ كُلِّيَّةٍ
يُبَيِّنُ عَلَيْهَا الْمُعْبُرُونَ مَا يُتَّقَصُّ عَلَيْهِمْ وَيُقَوِّلُونَهُ ، فَيَقُولُونَ إِنَّ الْبَحْرَ يَدُلُّ عَلَى
الْسُّلْطَانِ ، وَيَدُلُّ أَيْضًا عَلَى الْغَيْظِ أَوِ الْهَمِ أَوِ الْأَمْرِ الْفَادِحِ . وَيَقُولُونَ إِنَّ
الْحَيَاةَ تَدُلُّ عَلَى الْعُدُوِّ ، وَعَلَى الْحَيَاةِ وَأَمْثَالِ ذَلِكِ . فَيَحْفَظُ الْمُعْبُرُ هَذِهِ الْقَوَافِيْنِ
الْكُلِّيَّةِ ، وَيَعْبُرُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ بِمَا يَلَمُهُ وَبِمَا تَوَحِيُّ بِهِ الْقُرْآنُ . وَتَلَكَّ
الْقُرْآنُ بَعْضُهَا فِي الْيَقْظَةِ ، وَبَعْضُهَا فِي النُّومِ ، وَبَعْضُهَا يَنْقَدِحُ فِي نَفْسِ الْمُعْبُرِ
بِخَاصِيَّةٍ فِيهِ وَهَبَةٍ لَهُ^(١) .

تعلّمِي :

يَتَبَيَّنُ مَا سَبَقَ أَنَّ ابْنَ خَلْدُونَ رَوْحَانِيًّا ، لَأَنَّ بَعْضَ الْأَحَلَامِ فِي رَأْيِهِ
يُبَيِّنُ مِنَ الْمُسْتَقْبِلِ ، وَيَقْبِسُ مِنَ الْغَيْبِ ، أَمَّا بَعْضُهَا الْآخَرُ فَنَابِعٌ مِنَ الْحَافَظَةِ ،
وَهَذَا لَا يَكْشُفُ عَنِ غَيْبٍ ، لَأَنَّهُ يُعِيدُ إِلَى الْذَّاكِرَةِ أَحْدَاثًا مَرَّتْ .

وَهُوَ فِي مَذْهَبِهِ الرُّوحَانِيِّ يَتَبَعُ مَا ذَكَرَهُ الْكَنْدِيُّ مُخْتَصِّرًا مِنْ كِتَابِ
أَرْسَطُو وَأَفْلَاطُونَ وَسَائِرِ الْفَلَاسِفَةِ أَنَّ النَّفْسَ — حَتَّى وَهِيَ فِي الْبَدْنِ —
تَتَجَاهُزُ فِي الْمَعْرِفَةِ حَدَّودَ الْبَدْنِ الضَّيْقَةِ ، كَمَا تَتَجَاهُزُ حَدَّودَ الْعَالَمِ الْمَحْسُوسِ ،
فَتَعْلَمُ الْحَقَّاَقَ وَالْأَسْرَارَ ، وَذَلِكَ إِذَا تَجَرَّدَ صَاحِبُهَا مِنَ الْمَادِيَاتِ ، وَتَفَرَّغَ لِلنَّظَرِ
وَالْبَحْثِ ، فَإِذَا مَا فَارَقَتِ الْبَدْنَ انْكَشَفَتْ لَهَا جَمِيعُ الْحَقَّاَقَ ، وَهِيَ عِنْدَ نَوْمِ
الْحَوَّاسِ تَرَى الْعِجَابَ ، وَتَتَصَلُّ بِالْأَرْوَاحِ ، وَتَعْبُرُ إِلَى عَالَمِ الْحَقِّ فَتَرَى

عجائب من الأحلام ، وتنصل بالأنفس التي فارقت الأبدان ، ويفيض عليها البارى من نوره ورحمته . وليس كل نفس تفارق البدن تستطيع أن تصل إلى هذه الرتبة ؛ لأن من الأنفس مافية دنس^(١)

وكذلك الغزال آمن بأن وراء الحس إلهاما ، وآمن بالأحلام الغيبية ، ورأى أن الصفاء الروحي وسيلة لإدراك بعض الغيب ، وأن وراء العقل طوزا آخر تفتح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب وما سيكون في المستقبل ، وأموراً أخرى العقل معزول عنها كعزل قوة التمييز عن إدراك المعقولات ، وكعزل قوة الحس عن مدركات التمييز . وليس الوسيلة إلى هذا الإدراك من طريق الدليل والقياس أو المنطق ، لأن مبناه الذوق والوجدان^(٢)

وهذا الرأى يخالف ما ذهب إليه الماديون من مدرسة العلامة فرويد وغيره ، إذ ينكرون الرؤيا الغيبية ، ويعتبرون الأحلام كلها استرجاعاً لحوادث مرت – النوع الشيطاني في نظر ابن خلدون – ، أو تنفيضاً عن أماكن استقرت منذ الطفولة أو اخترنت منذ الكبر في العقل الباطن، فكبتت أو قمعت ، مرغمة على الانتقال من الشعور إلى العقل الباطن ، واللياذ بجهاه ، لأنها لا تلائم المجتمع ، ولا توائم آدابه ، أو لا يستريح الشخص لذكرها ، فتبقي مغلوبة على أمرها ، محجوبة عن ظهورها ، ثم تنضم إليها رغبات أخرى مكبوبات مثلها ، مشبهة لها ، وكلما همت بالظهور صدتها الرقيب ، وما الرقيب إلا الوعي . ولكن الوعي لا بد له أن يغفل حين النوم مثلاً ، فيضعف عن احتجاز الرغبات الباطنة ، فتتسلى لو اذا ، ولقد تتسار وتتنكر وتتحلل غير حقيقتها ، وتبز إلى اليقظة في لباس غير لباسها . يقول فرويد

• إن الأحلام بمجموعة رموز يشير كل منها إلى رغبة من الرغبات المكبوطة، وعلى الجملة فالآحلام في نظر المحدثين من علماء النفس.

- ١ - تمثيلية تعيد حوادث وقعت
 - ٢ - تفاصيلية ترضي رغبة مقهورة
 - ٣ - غيبية ، تذكرة بما سيكون

والعلماء في هذا النوع الآخير على مذاهب :

بعضهم يرى مارآه الـكـنـدـى وابن خلدون ، وهم الروجانيون ، وبعضهم يرى أنها ناشئة عن استنباط العقل الباطن ، ويسمى هذا التعليل الاستنباطي ، وهو أقرب إلى مذهب المحدثين المعارضين للمذهب الروحاني . وبعضهم يرى أنها نوع من الإيحاء ، ويسمى هذا التعليل الإيحائي ^(١)

وبعد فإنني أو من برأى ابن خلدون في الأحلام الغيبية ، ولا أرتاب في أحاديث القلب ، وأحسس الروح ، وأجدني في الأيام التي أنساني فيها بروحى أحلم الحلم فقل أن يشرد ، ولقد عودني حُلْمِي ألا يخدع ، ولقد أرى الرؤيا والصبح يتنفس ، فأصحو على ثقة منها ويقين ، فأقصها على صديق فيتندر ، ولكنها بعد قليل تتحقق وتحضر .

وفي الغرب والشرق علماء يدينون بالمذهب الروحاني، ويروجون له،
بل يستحضر بعضهم الأرواح.

ولست مع ابن خلدون في تقسيمه الرؤيا إلى إلهية وملكية وشيطانية ، وأوثر تقسيمها إلى تمثيلية وتنفيذية وغيرية كما سبق .

((١) في علم النفس ٢٦٥ / العقل الباطن تأليف سادنر . ترجمة عباس حافظ

مكانته الأدبية

عصره السياسي والأدبي

الحالة السياسية

أطلق العرب على شمال إفريقية ما يلي مصر إلى المحيط الأطلسي (بلاد المغرب) ، فشملت هذه الكلمة إقليم إفريقيا ، أى المغرب الأدنى (طرابلس وتونس) ، أو المغرب الأوسط ، والمغرب الأقصى ، وسمى هذا القسمان أيضاً بر العدوة ، لأنهما معبر إلى الأندلس .

وأطلق العرب على سكان شمال إفريقيا كلمة (بربر) ، وكان هذا اللفظ يطلق على غير العرب ، وقيل إن أصله من كلمة پارفاروس اليونانية ، ومعناها صوت الألغ، وقد أطلقه اليونان على كل من لم يتكلم لغتهم ، ثم أطلقه الرومان على كل من ليس يونانياً أو رومانياً^(١) ، كما أطلق العرب على كل من ليس عربياً كلامه أعمى ، لعجزه عن التكلم بالعربية .

وقد فتح المسلمون بلاد البربر في خلافة عثمان بن عفان سنة ٢٦ هـ ، ثم توسعوا في خلافة معاوية . وحكمها ولاة من بني أمية ومن بني العباس ، ثم نشأت هناك دول مستقلة كالأغالبة (١٨٤ - ٢٩٦ هـ) والعبيديين أو العلوين (٢٩٦ - ٣٦١ هـ) والصنهاجيين بتونس (٣١٦ - ٥٤٢ هـ) والأدارسة (٦٩١ - ٢١٣ هـ) والموحدين (٥١٤ - ٦٦١ هـ) .

(١) محاضرات في الأدب العربي ١٩١ للدكتور أحمد ضيف .

فلما انهارت دعائم دولة الموحدين خلفتها دويلات وإمارات عده ، فقامت في تونس دولة بني حفص ، وفي تلمسان والمغرب الأوسط دولة بني عبد الواد ، وفي فاس والمغرب الأقصى دولة بني مرين ، وقامت إمارات صغيرة في بعض الثغور بعضها يستظل بدولة من هذه ، وبعضها خارج مستقل .

وكان بنو مرين أقوى جيرانهم ، وقد غزا عميدهم ومؤسس دولتهم أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق الأندلس مرات ، وتوفي ٥٦٨٥ - ١٢٨٦ م وكان على عرش فاس في حياة ابن خلدون السلطان أبو الحسن ، ولـي الملك ٧٣١ - ١٣٣٠ م ، وقد غزا جبل طارق ، ثم زحف على المغرب الأوسط حتى استولى على تلمسان قاعدة ملك بني عبد الواد ٧٣٧ هـ وبذلك أمتدت دولة بني مرين شرقاً حتى إفريقية (تونس) . ثم استولى أبو الحسن ٥٧٤٨ هـ على تونس ، واسترد الحفصيون ملكهم ٧٥٠ هـ لكن المولى الفضل ابن سهل الحفصي لم يكـد يسترد ملك أسرته حتى خرج عليه الوزير أبو محمد عبد الله بن تفراجين ، وانتزع منه العرش ، وأقام فيه أخيه الطفل أبا إسحق ابن يحيى الحفصي في كفالتـه وإمرـته ، وذلك في أوائل ٥٥١ هـ .

وفي سنة ٧٥٣ هـ زحف أمير قـسـنـطـيـنـةـ أبو زـيدـ حـفيـدـ السـلـطـانـ يـحيـيـ الحـفـصـيـ فيـ قـواـتهـ عـلـيـ توـنـسـ ، ليـسـتـرـدـ مـلـكـ أـسـرـتـهـ منـ قـبـضـهـ الـوـزـيـرـ الـمـعـتـصـبـ ابنـ تـفـرـاجـيـنـ . وـكـانـ ابنـ خـلـدونـ فـيـ حـاشـيـةـ أـبـيـ زـيدـ ، وـهـزـمـ أـبـوـ زـيدـ ، فـانـسـلـ ابنـ خـلـدونـ مـنـ الـمـعـسـكـ نـاجـيـاـ ، ثـمـ عـزـمـ أـبـوـ عـنـانـ بـنـ أـبـيـ الـحـسـنـ مـلـكـ الـمـغـرـبـ الـأـقـصـيـ عـلـيـ فـتـحـ الـمـغـرـبـ الـأـوـسـطـ ، وـاستـعـادـةـ تـلـمـسـانـ الـتـيـ اـفـتـحـاـ أـبـوـهـ ، ثـمـ اـسـتـعـادـهـ مـنـ بـنـوـ عـبـدـ الـوـادـ ، فـزـحـفـ عـلـيـهـاـسـنـةـ ٥٧٥٣ـ هـ وـامـتـلـكـهـ ،

وُقْتَلَ ملِكُهَا أبا سعيد ، ثُمَّ دَخَلَتْ بِجَاهَةِ فِي طَاعَتِهِ . وَكَانَ أَبْنَاءُ خَلْدُونَ فِي بِسْكِرِهِ بَعْدَ فَرَارِهِ مِنَ الْمَعْسَكِرِ ، فَسَعَى إِلَى لِقَاءِ أَبِيهِ عَنَانَ بْنَ لَيْلَانَ ، فَأَكَرَّهَهُ بِمَا لَمْ يَكُنْ يَحْتَسِبْ^(١) .

لَقَدْ كَانَ مِنْ تَصْفِ الْقَرْنِ الثَّاَمِنِ لِلْهِجَرَةِ مِنْ عَزَّ عَالِيَّةِ الشُّورَاتِ وَالْانْقَلَابَاتِ وَتَابِعَ الدُّولَاتِ ، وَكَانَتِ الْإِمَارَاتُ الصَّغِيرَةُ تَتَعَاقِبُ فِي الْقَوَاعِدِ وَالثُّغُورِ الْوَسْطَى ، مُثْلِّ بِجَاهَةِ وَبُونَةِ وَتَلْمَسَانِ وَغَيْرِهَا ، وَتَنَشَّبُ لَامِتَلَاكَهَا حَرُوبُ مِتَّلَاحَقَةٍ .

وَفِي هَذَا الْوَقْتِ نَفْسِهِ كَانَتْ قَصْوَرُ السَّلَاطِينِ وَالْأَمْرَاءِ مُسْرَحًا لِلنَّافِسَاتِ وَالْمَسَائِسِ ، وَمُطْمَحِ أَنْظَارُ الطَّامِعِينَ فِي الزَّلْفِيِّ ، وَالظَّاهِرِينَ إِلَى اِنْزَاعِ السُّلْطَانِ ، حَتَّى لَقَدْ كَانَتِ الْحَرُوبُ وَالشُّورَاتُ تَنَشَّبُ فِي الْأَسْرَةِ الْوَاحِدَةِ .

الْحَالَةُ الْأَرَدِيَّةُ :

هَذِهِ لَحْةُ بَعْدِي عنِ الْحَالَةِ السِّيَاسِيَّةِ فِي بَلَادِ الْمَغْرِبِ ، وَفِي عَصْرِ أَبْنَاءِ خَلْدُونَ ، تَبَيَّنَ أَنَّ الْحَرُوبَ وَالْفَتَنَ لَمْ تَكُنْ تَهْدَأُ ، فَنِنَ الطَّبِيعِيُّ أَنْ يُشَغِّلَ النَّاسَ وَالْعَلَمَاءَ وَالْأَدِيَّاءَ بِهَذَا الْصَّرَاعِ الْمِتَّلَاحِقِ ، وَأَنْ يَتَأَثِّرَ الْأَدِبُ وَالْعِلْمُ بِهَذَا الْقُلْقَلُ وَالاضْطَرَابُ ، وَكَيْفَ يَزْدَهِرُ الْأَدِبُ وَالْعِلْمُ فِي جَوَّ مُتَقْلِبٍ غَيْرِ مَأْمُونٍ الْعَاقِبَةُ ؟

عَلَى أَنَّ الْمُلُوكَ وَالْأَمْرَاءَ كَانُوا يَنْتَهِزُونَ فَرَصَ السَّلْمِ عَلَى قُلْتَهَا وَقُصْرِهَا ، فَيَقْرَبُونَ إِلَيْهِمُ الْعَلَمَاءَ وَالْأَدِيَّاءَ ، وَكَانُوا يَنْبُونَ حَفْصَ وَبَنْوَ مَرِينَ مَلَادِرَ رَجَالٍ

(١) التعریف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ٥٨ نشره محمد بن تاویت سنة ١٩٥١ وسأعتمد على هذا المطبوع فيما يأتي بدلاً من الخطوط . وابن خلدون محمد عبد الله عنان . ٢٤ .

الفكر والأدب ، يظلونهم برعايتهم ، ويحتفون بهم ، ويولونهم المناصب
الرفيعة .

يقول ابن خلدون ، ولما استولى السلطان أبو الحسن على تليسان رفع
من منزلة أبنى الإمام : أبي زيد وأبي موسى ، واختصهما بالشورى في
بلدهما ، وكان يستكثر من أهل العلم في دولته ، ويجرى لهم الأرزاق ،
ويعمر بهم مجلسه ... ثم أدنى ابن عبد النور ، وقرب مجلسه ، وولاه قضاء
عسکره ، ^(١) .

وكان غرناطة حالية بكثير من العلماء والأدباء ، لكن الأندلس لم
تسع لعلمائها وأدبائها ، ولا سيما بعد أن طغت مملكة قشتالة النصرانية على
أطراف المملكة الإسلامية ، واستولت على أكثر ثغورها وقواعدها ،
فرحل كثير من علماء الأندلس وأدبائه إلى المغرب ، فأثرت بالثقافة والأدب
في الوقت الذي زُلزلَتْ فيه من الحروب والفتنة .

على أن الأدب لم يبلغ في المغرب ما بلغ في المشرق أو في الأندلس من
نضج وسمو ، ولعل مرد ذلك إلى أن العجمة كانت متصلة في البربر ، وأن
دولهم لم تعم طويلا ، فترعى العلم والأدب ، بل إنها كانت لا تستقر .
لذلك كان الملوك والأمراء فيشغل بحروفهم عن تشجيع العلماء والأدباء ،
وكان الأدباء والعلماء غير مطمئنين على حياتهم وأرزاقهم فلا ينتجون . ثم
إن العرب كانوا قلة في بلاد المغرب ، ولم يكثروا كما كثروا في مصر
والأندلس . ولاشك أن كثراهم ، وتزوح قبائلهم إلى بعض البلاد المفتوحة
كان يفسح المجال للغة والأدب . على أن البربر قوم شداد المراس ، أقوياء

الشكيمة ، لدُّ في عدائهم للعرب الفاتحين ، فلم تُشرِّبْ قلوبهم حبة اللغة العربية . ولقد يعزز ذلك أن ابن خلدون نفسه كثيراً ما حمل على العرب ، وتنقص من أقدارهم ، وآتتهم بتناصل المموجية ، وبغضه الحضارة . وإن كانت أحكامه هذه جائزة لا تنطبق على العرب ، وإنما تنطبق على الأعراب في عهده .

النثر في عصر ابن خلدون

حينما نتحدث عن النثر أو الشعر في المغرب أو في الأندلس لا بد من أن نتعرف حالها في المشرق ، لأن المغاربة والأندلسيين كانوا يتلقون على المشارقة ، ويتأسون بهم ، ويتأثرون طرائقهم في الكتابة والشعر ، وكان المغاربة يقتدون بالأندلسيين كما يقتدون بالمشارقة .

١ - ولا عجب في ذلك ، فإن العرب نزحوا إلى الأندلس وأنشؤوا في أرجاءها ، من كل قبيلة وعشيرة ، عدنانيين وقططانيين . فمن العدنانيين القرشيين والهاشميون الذين كانت منهم دولة بني حمود ، ومنهم المخزوميون الذين منهم أبو بكر المخزومي الشاعر ، والوزير ابن زيدون ، ومنهم الفهريون الذين منهم يوسف بن عبد الرحمن الفهري الذي انتزع الحكم منه عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية بالأندلس .

أما القططانيون فكانوا أكثر انتشاراً ، ومن قبائلهم كهلان قبيلة محمد بن هانئ الشاعر ، ومنها الأزد الذين وفدو على الأندلس جماعات ، ومن اليمنيين أيضاً الجد الأول لعبد الرحمن بن خلدون «وَنَسِيَّاً فِي حَضْرَ مَوْتِهِ» من عرب اليمن إلى وائل بن حجر من أقيال العرب . قال ابن حزم : ويدرك

بني خلدون الإشبيليون من ولده ، وجدهم الداخل من الشرق خالد المعروف
بن خلدون بن عثمان بن وائل بن حجر ،^(١) .

٢ - وقد وفد إلى الأندلس كثير من العلماء والأدباء ، فوجدوا هنالك
ترحيباً وتكلماً وإغداقاً ، ففاضت ثقافتهم ، وقرضوا الشعر وكتبوا النثر ،
مصورين ما يرون من مشاهد في أسلوب عربي ، حراساً على اللغة القومية ،
معتزين بماضيها المجيد ، مقيدين بطرائق التعبير التي جرى عليها أسلafهم ،
ويجري عليها معاصر وهم في الشرق . وكان العلماء يفدون من المشرق إلى
المغرب ، ويقبلون من المغرب إلى المشرق ، حتى لا يكاد الطريق يخلو من
قدم تسعى للرحلة في سبيل التعليم أو طلب العلم .

٣ - على أن الخلفاء ثم الملوك في الأندلس كانوا يرون في المشرق
مثلاً أعلى جديراً بالاحتذاء ، فهذا قدم زرْباب المغني إلى الأندلس بأمر
الحكم بن هشام ، وأخبر بوفاته ٢٠٦هـ قبل أن يبلغ الأندلس ، فهم بالرجوع ،
جاءه كتاب من عبد الرحمن بن الحكم يستدعيه ويرحب به ، فدخل
الأندلس هو وأهله وأكرمه الخليفة أيمان إكرام ، وتلذذ عليه كثير من
الرجال والنساء . والحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦هـ) بعث إلى أبي الفرج
الأصبهاني بألف دينار من الذهب ، ليرسل إليه نسخة من كتاب الأغانى
قبل أن يظهر في العراق .

٤ - ولقد حصرهم في محاكاة الشرق أنهم لم يحفلوا أول الأمر بما كان
لبلاط الأندلس من ثقافة لا تبُيُّنة ، ولم يحفلوا بنقل شيء من فلسفة اليونان
وعلومهم ، لأنهم يريدون أن تكون دولتهم عربية ، ينافسون بعروتها

دولة العرب الفارسية في بغداد ، حتى لقد كان الطلاب الذين يرحلون إلى المشرق ليتعلموا يكتفون بالطلب على علماء الدين واللغة ، مثل يحيى بن يحيى الليثي الذي رحل إلى مكة ، وأخذ الفقه عن الإمام مالك ، ومثل أبي الخطاب عمر بن الحسن الأندلسي ، فقد رحل إلى شمال إفريقيا ومصر والشام والعراق ، وسمع ببغداد وبواسط وخراسان ، وكان همه كله مقصوراً على الأخذ عن أئمة الحديث ^(١) ، وقد رحل ابن مالك الأندلسي إلى دمشق وسمع الحديث والنحو واللغة بها ^(٢) .

وكان العلماء الذين يستقدمون من المشرق أدباء أو لغوين مثل أبي القالي ، استقدمه الخليفة عبد الرحمن الناصر لتربية ابنه الحكم وتعليمه .

الطريقة الشائعة في عصره

١ - كانت الطريقة الشائعة في عصره هي طريقة القاضي الفاضل (المتوفى ٥٩٦ھ) فقد سيطرت على كتاب مصر والأندلس والمغرب . وهي كما نعلم مؤسسة على طريقة ابن العميد ، وتزيد عليها المبالغة في الزينة ، من سجع ملزوم ، أكثره متكلف ، في جمل طوال ، وتورية ، وجناس ، وطباق ، وتوجيه ، واقتباس ، وتضمين . وقد اعتسف بهذه المحسنات في نثره وفي شعره . وكان تلاميذه والمؤثرون بطريقته من بعده أقل منه اطلاقاً ، وأقصر باعاً ، فهبطوا بتكلفهم هبوطاً شيئاً . وربما سولت لبعضهم نفسه أن يُبْنَ طريقة القاضي الفاضل بحشد البديع ، واستكراه الحلى اللفظية ، فحملوا نثرهم أثقالاً ليست من الالى بل من القوافع ، وتحت هذه الأثقال لفظت الأفكار أنفاسها ، ونامت الأساليب بضعفها .

(١) وفيات الأعيان ١ / ٤٢٧

(٢) نفح الطيب ١ / ٤٨٢

(م ٩ - ابن خلدون)

وكان الدافع إلى ذلك سيطرة غربة التقليد على الكتاب ، وظنهم أن طريقة القاضي الفاضل أسمى ما انتهت إليه أقلام المنشئين ، ثم إنهم كانوا فقراء في الثقافة عامة والفلسفة خاصة ، فلا تختلج في نفوسهم معان سامية ، وأفكار راقية ، فعمدوا إلى تمويه هذا الضعف بستار وطلاه من الزخرف ، وربما حفزهم إلى ذلك أيضاً أن نقاد هذا العصر كانوا كــفين بالطريقة الفاضلية ، لا ينال إعجابهم غيرها ، فخضع الكتاب للنقاد ، وجاروهم في إعجابهم ، وأنشتو على الغرار الذي يرتضونه ، ولستنا ننتظر من كتاب هذا العصر أن يخرجوا على نقاده ، ويثوروا على الطريقة العقيمية التي يكفوهم احتذاءها ، لأن عصور الضعف لا تجود بعقبرى إلا نادراً . وقد كان هذا العبرى الجرىء ابن خلدون .

ومن أمثلة نثر القاضي الفاضل ما كتبه لتوالية قائد من أرباب السيف على لسان السلطان : « أما بعد ، فإن أمير المؤمنين يصطنع من يرتضيه لتأليف عبيده وضمّهم ، ويستوقفه للنظر في تقديم رجال ملكته وزمامهم ، ويختار من يجتبيه لإحراز مدحهم ، بالبعد من موجبات ذمهم ، ولا يؤهل لذلك إلا من توسل بالغناه ، وتقرب ، واستقل بالأعباء وتدرب ، وأطلق حدة التوفيق فضى وتدرب ، وأودع الإحسان فما زايل محله ولا تغرب ، ولا يلبس الأمور ملابسة من فطن وجرب ، وقد أيد الله دولته بفتاه وأمينه ، وعقده وئمه ، السيد الأجل الذى غدت آراؤه للمصالحة كواقل ، وأذى كل متدين عيون حزم غير ملتفتات عنه ولا غواقل ، وأطلع من السعد نحو ما غير غوارب ولا أواقل ، وقام بفرائض النصائح قيام من لم يجوز فيها رخص

النوافل ، وتحدثت مفعاله رماحه في المحافل ، فماراعت المحافل ...^(١) وفي هذا المثال - الذي لم أتخيره - سجع ملتزم ، وجمل غير منسجمة ، بعضها طويل وبعضها قصير ، وجناس (ضمهم ، وزمهم ، وذمهم) و (تدرب ، وتدرب ، وتغرب) واستخدام للمضطلحات (رخص النوافل) .

٢ - وقد جرى في مضمار هذه الطريقة لسان الدين بن الخطيب (٧١٢ - ٧٧٦ هـ) وإذا كانت طريقة ابن العميد قد استمدت نفوذها في الشرق والغرب من مكانة السياسية ولاليته الوزارة ، ثم إذا كانت طريقة الفاضل قد ذاعت وسيطرت على الكتاب من بعده ، لأنَّه كان وزيرًا لصلاح الدين ونائبه في غيابه ، فإنَّ لسان الدين بن الخطيب كان وزيرًا لبني الأحرم ، وصاحب سلطان عظيم ، ومكانة رفيعة استمدتها من الوزارة ومن علمه وأطلاعه .

وأدبه لا يختلف عن أدب ابن العميد والقاضي الفاضل ، بل يزيد أنه حافل بالسجع ، وبالإطناب ، وبالتطويل في أكثر الأحيان إلى درجة تبعث الملل ، لأنَّ مقياس الجودة في نظره الإكثار ، ولا شك أن الإطالة أشد إضجاعاً من السجع المتلكف ، فإذا اجتمعا معاً فقد تصافرا على الإملال ، وربما كان الباعث له على الإطناب رغبته في تكرير المعنى الواحد في عبارات شتى كما كان يفعل القاضي الفاضل .

على أن كنابته مقللة بالخل في اللفظية ، وبألقاب التعظيم والتجليل .

وهو في كثير من رسائله يدُوف الشعر بالنثر ، كقوله في تعزية بعض الرؤساء عن أخيه :

أعىذك أن يُلْقِي حسودك شامتا
يليق بـعـزـ منك أـعـجـ نـاعـتا
وـسـرـ حـتـكـ الشـاهـ طـابـتـ مـنـابـتا
وـأـنـطـقـ مـنـهـ الشـبـجوـ مـنـ كـانـ صـامـتا
وـكـيفـ تـرـجـيـ أـنـ تـصـاحـبـ مـاتـا
إـذـاـ لمـ نـكـنـ بـالـحـزـنـ نـرـجـعـ فـاتـا
وـاتـصـلـ بـأـيـهاـ الـهـامـ ،ـ وـبـدـرـ الـمـجـدـ الـذـىـ لـاـ يـفـارـقـهـ التـامـ ،ـ مـاـ جـنـتـهـ عـلـىـ
عـلـيـانـكـ الـأـيـامـ ،ـ وـاقـضـتـهـ بـحـنـ الرـدـىـ بـعـدـ أـنـ طـالـ الـخـيـامـ^(١) ،ـ وـماـ اـسـتـأـثـرـتـ
بـهـ الـحـيـامـ ،ـ فـلـمـ يـغـنـ الدـفـاعـ وـلـاـ نـفـعـ الـذـمـامـ ،ـ مـنـ وـفـاةـ صـنـوـيـكـ الـكـرـيمـ الصـفـاتـ،ـ
وـهـلـالـ وـسـطـيـ الـأـسـلـاكـ ،ـ وـبـدـرـ الـأـخـلـاكـ ،ـ وـبـحـيرـ الـأـمـلاـكـ ،ـ وـأـنـاـ دـيـغـ
صـلـ الـفـرـاقـ ،ـ الـذـىـ لـاـ يـفـيـقـ بـأـلـفـ رـاقـ ،ـ وـجـرـيـحـ سـهـمـ الـبـينـ ،ـ وـبـجـارـىـ
الـعـيـونـ الـجـارـيـةـ بـدـمـعـ الـعـيـنـ ،ـ لـفـقـدـ أـنـيـسـ سـهـلـ عـلـىـ مـضـضـ النـكـبةـ ،ـ وـنـحـىـ
لـيـثـ الـخـطـبـ عـنـ فـرـيـسـتـ بـعـدـ صـدـقـ الـوـثـيـةـ ،ـ وـآـنـسـنـىـ فـيـ الـاغـتـرـابـ ،ـ وـصـبـنـىـ
إـلـىـ مـنـقـطـعـ الـتـرـابـ ،ـ وـكـفـلـ أـصـاغـرـىـ خـيـرـ الـكـفـالـةـ ،ـ وـعـاـمـلـىـ مـنـ حـسـنـ
الـعـشـرـةـ بـمـاـ سـجـلـ عـقـدـ الـوـكـالـةـ .ـ اـنـزـعـهـ الـدـهـرـ مـنـ يـدـيـ حـيـثـ لـاـ أـهـلـ وـلـاـ
وـطـنـ ،ـ وـالـاغـتـرـابـ قـدـ أـلـقـىـ بـعـطـنـ ،ـ وـذـاتـ الـيـدـ يـعـلـمـ حـالـهـ مـنـ يـعـلـمـ مـاـ ظـهـرـ
وـمـاـ بـطـنـ ،ـ وـرـأـيـتـ مـنـ تـطـارـحـ الـأـصـاغـرـ عـلـىـ شـلـوـ الـغـرـيـبـ ،ـ النـازـحـ عـنـ
الـنـسـيـبـ وـالـقـرـيـبـ ،ـ مـاـ حـمـلـىـ عـلـىـ أـنـ جـعـلـتـ الـبـيـتـ لـهـ ضـرـبـاـ ،ـ وـمـدـفـنـاـ صـرـبـاـ ،ـ

(١) خـيـمـ بـالـمـكـانـ :ـ أـقـامـ ،ـ وـالـخـيـامـ .ـ جـمـعـ خـيـمةـ ،ـ وـمـصـدرـ خـامـ أـيـ نـكـصـ
وـجـبـنـ ،ـ وـلـعـبـهـ يـرـيدـ هـذـاـ الـمـعـنـىـ الـأـخـيـرـ وـهـوـ أـنـ الـمـوـتـ اـخـتـطـفـ الـمـتـوـفـيـ بـعـدـ تـرـددـ

لأنخدع من يرى أنه لم يزل مقيناً لديه ، وأن ظل شفقته منسحب عليه ، فأعيا مصابي عند ذلك الفرح ، وأعظم الظما البرح ، ونكا القرح القرح ، إذا كان ركناً قد بنته لـ يـد معرفتك ، ومتـصـفاً في البرـبـي بـكـرـيمـ صـفتـكـ ، فـواـهـفـاـ عـلـيـهـ منـ حـسـامـ ، وـعـزـ سـامـ ، وـأـيـادـ جـسـامـ ، وـشـهـرـةـ بـيـنـ حـامـ وـسـامـ ، أـيـ جـمـاـلـ خـلـقـ ، وـوـجـهـ لـلـقـاصـدـ طـلـقـ ، وـشـيمـ تـطـمـحـ لـلـمـعـالـيـ بـحـقـ .

ذهبـتـ إـلـىـ الجـزـعـ فـرـأـيـتـ مـصـابـهـ أـكـبـرـ ، وـدـعـوتـ بـالـصـبـرـ فـوـلـيـ وـأـدـبـ ، وـاسـتـجـدـتـ الدـمـعـ فـغـضـبـ . وـاسـتـصـرـخـتـ البـكـاءـ فـأـنـكـرـ مـارـوـيـ وـاقـضـبـ ، وـهـىـ الأـيـامـ أـيـ شـامـخـ لـمـ تـهـدـهـ ، أـوـ حـدـيـدـلـمـ تـبـلـهـ وـإـنـ طـالـتـ المـدـهـ ، فـرـقـتـ بـيـنـ التـيـجـانـ وـالـمـفـارـقـ ، وـالـخـدـودـ وـالـخـارـقـ ، وـالـطـلـيـ وـالـعـقـودـ ، وـالـكـأسـ وـابـنـةـ العـنـقوـ فـأـنـاـ يـاـ سـيـدـيـ أـقـيمـ رـسـمـ التـعزـيـةـ ، وـإـنـ بـؤـتـ بـضـاعـفـ الـمـرـزـيـةـ ، وـلـاـعـتـبـ عـلـىـ الـقـدـرـ ، فـالـوـرـدـ مـنـ الـأـمـرـ وـالـصـدـرـ

وـأـنـاـ وـإـنـ أـخـرـتـ فـرـضـ بـيـعـتـكـ لـمـاـ خـصـنـيـ مـنـ الـمـصـابـ ، وـنـالـنـىـ مـنـ الـأـوـصـابـ ، وـنـزـلـ بـيـ مـنـ جـوـرـ الزـمـانـ الـغـصـابـ ، مـنـ يـقـبـلـ عـذـرـهـ الـكـرـمـ ، وـيـسـعـهـ الـحـرـامـ الـمـحـترـمـ . وـالـلـهـ سـبـحـانـهـ الـكـفـيلـ لـسـيـدـيـ وـعـمـادـيـ بـيـقـاءـ يـكـفـلـ بـهـ الـأـبـنـاءـ وـأـبـنـاءـ الـأـبـنـاءـ ، وـيـعـلـىـ لـقـوـمـهـ رـتـبـ الـعـزـ سـامـيـةـ الـبـنـاءـ^(١)

وـمـنـ أـرـسـائـلـهـ إـلـىـ اـبـنـ خـالـدـونـ رـدـأـ عـلـىـ رـسـالـةـ مـنـهـ ، وـقـدـ قـرـبـ مـنـ غـرـنـاطـةـ :

حـلـلتـ حـلـولـ الغـيـثـ فـيـ الـبـلـدـ الـمـحـلـ عـلـىـ الطـائـرـ الـمـيمـونـ وـالـرـحـبـ وـالـسـهـلـ يـمـيـنـاـ بـمـنـ تـعـنـوـ الـوـجـوهـ لـوـجـمـهـ مـنـ الشـيـخـ وـالـطـفـلـ الـمـهـداـ وـالـكـهـلـ تـُنـسـىـ اـغـتـاطـىـ بـالـشـيـبـيـةـ وـالـأـهـلـ لـقـدـ نـشـأـتـ عـنـدـيـ لـلـقـيـاـكـ غـبـطـةـ

أقْسَمْتْ بِمَنْ حَجَّتْ قُرْيَاشَ لِبَيْتِهِ، وَقَبْرَ صُرْفَ أَزْمَةَ الْأَحْيَاءِ لِمَيْتِهِ،
وَنُورَ ضُرْبَتْ الْأَمْثَالِ بِمُشْكَانِهِ وَزِيَّتِهِ، لَوْ خَيْرَتْ أَيْمَانَ الْحَبِيبِ الَّذِي زَيَّرَتْهُ
الْأَمْنِيَّةُ السَّنِيَّةُ، وَالْعَارِفَةُ الْوَارِفَةُ، وَاللَّطِيفَةُ الْمُطْبِقَةُ، بَيْنَ رَجْعِ الشَّابِ
يَقْطُرُ مَاءً، وَيَرِفُ نَمَاءً، وَيَغَازِلُ عَيْنَ الْكَوَاكِبِ، فَضْلًا عَنِ الْكَوَاكِبِ،
إِشَارَةٌ وَإِيحَاءٌ، بِحِيثُ لَا الْوَخْطَ يَلِمُ بِسِيَاجِ لِمَتَّهِ، أَوْ يَقْدِحُ ذُبَالَهُ فِي ظَلْمِهِ ..
وَزَمَانُهُ رَوْحٌ وَرَاحٌ، وَمَغْدِيٌ فِي النَّعِيمِ وَمَرَاحٌ، وَقَصْفٌ صَرَاحٌ، وَرُوقٌ
وَجَرَاحٌ، وَانْتِحَابٌ وَافْتِرَاحٌ، وَصَدُورٌ مَا بَهَا إِلَّا انْشِرَاحٌ، وَمَسَرَاتٌ
تَرْدُفُهَا أَفْرَاحٌ، وَبَيْنَ قَدْوَمَكَ خَلْيَعُ الرَّسَنِ، مُمْتَعًا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ بِالْيَقْظَةِ وَالْوَسَنِ،
مُمْتَعًا بِظَرْفِ الْمَعَارِفِ، مَالِئًا أَكْفَافِ الصِّيَارِفِ، مَاحِيًّا بِأَنْوَارِ الْبَرَاهِينِ شَبَهِ
الْزَّخارِفِ، لَمَّا اخْتَرْتُ الشَّبَابَ وَإِنْ رَاقَنِي زَمْنُهُ، وَأَعْيَانِي ثُمَّنُهُ، وَأَجَدَّتْ
سَحَابَ دَمْعِيِّ دَمْنَهُ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَقَّ جَنُونَ اغْتَرَابِيِّ، وَمُلْكَنِي أَزْمَةَ
آرَابِيِّ، وَغَبَطْنِي بِمَائِي وَتَرَابِيِّ، وَمَأْلَفِ أَتَرَابِيِّ ... ،^(١)

فِي هَذِينِ النَّوْذِجِينِ طَابِعُ لِسانِ الدِّينِ بْنِ الْخَطِيبِ ، مِنْ سَجْعِ
مَسْتَكِرِهِ ، وَجَلَّ بَعْضُهَا طَوِيلًا لِيَهُدِّيَ السَّجْعَةَ ، وَبَعْضُهَا قَصِيرٌ لِأَنَّ السَّجْعَةَ
وَاتَّتْ ، وَإِطَالَةُ مَلْهَى بِتَكْرِيرِ الْمَعْنَى الْوَاحِدِ فِي قَوَالِبِ مِنَ الْأَلْفَاظِ لَا فَضْلَ
لِلَّاحِقَةِ عَلَى سَابِقَهَا ، وَمُحْسِنَاتِ بَدِيعِيَّةِ ، وَتَفَاهَةِ فِي أَكْثَرِ الْمَعَانِيِّ ، وَضَعْفِ
فِي الْخَيَالِ مِثْلِ (قَدْوَمَكَ خَلْيَعُ الرَّسَنِ) مِثْلِ (رَقَّ جَنُونَ اغْتَرَابِيِّ) .

وَلَقَدْ أَعْجَبَ مُعَاصِرُوهُ بِطَرِيقَتِهِ ، فَتَصَدَّرَ زَعَامَةُ الْأَدَبِاءِ فِي عَصْرِهِ ،
فَأَرَّخَ الْمَقْرَرِ لِهِ وَلَأَسَانِدَتْهُ وَتَلَامِيذهُ تَأْرِيْخًا مَفْصَلًا فِي كِتَابِهِ ، بَلْ سَمَاهُ
(نَفْحُ الْطَّيِّبِ) ، مِنْ غَصْنِ الْأَنْدَلِسِ الرَّطِيبِ ، وَذَكَرَ وَزِيرَهَا لِسانِ الدِّينِ
ابْنِ الْخَطِيبِ) ، وَقَالَ فِي مِقْدِمَةِ الْجَزْءِ الْرَّابِعِ إِنَّهُ (فِي إِمْرَادِ جَمْلَةِ مِنْ نَثْرِهِ الَّذِي

عقب أربعين البلاغة من نفحاته ، ونظمه الذي تألق نور البراعة من مخانه ، وصفاته ، وما يتصل به من أزجاله وموشحاته ... وهو أنا أذكر ما حضرني الآن من بنات أفكار لسان الدين ، التي هي بالمحامن متقدمة ، وللبداعه متuelle ، فأقول : أما نثره فهو البحر الزخار ، بل الدر الذي به الافتخار ، وناهيك أن كتبه الآن في المغرب قبلة أرباب الإنشاء التي إليها يصلون ، وسوق دررهم النفيسة التي يزبون بها صدور طرسهم ويحملون ...^(١)

والحق إن أدب لسان الدين شعراً ونثراً لا يلغان من الجودة إلى الحد الذي بوأه المكانة الأدبية الرفيعة في عصره . ولعل الوزارة والسياسة والرياسة كان لها أثراً في هذه المكانة .

على أنه كتب في موضوعات علمية وتاريخية ، وأسلوبه فيها أحياناً مرسلاً ، وأحياناً أسلوب مسجوع مطولاً ، كان قدر الكتابة كان يقاس في نظره بالإكثار لا بالإجاده . ومن أسلوبه المرسل ما جاء في ترجمته لابن خلدون : « وأما المترجم فهو رجل فاضل ، حسن الخلق ، جم الفضائل ، باهر الحصول ، رفيع القدر ، ظاهر الحياة ، أصيل المجد ، وفوري المجلس ، خاصي الزي ، على الهمة ، عزوف عن الضيم ، صعب المقادرة ، قوى الجأش ، طامح لقُون الرياسة ، حاطب للحظ ، متقدم في فنون عقلية ونقلية ، متعدد المزايا ، سديد البحث ، كثير الحفظ ، صحيح التصور ، بارع الخط مُعرّى بالتجملة ، جواد ، حسن العشرة ، مبذول المشاركة ...^(٢) »

(١) نفح الطيب ٤ / ٢

(٢) نفح الطيب ٤ / ٦

صلحة ابن خلدون ببيانه الدين

أسلفت في أول الكتاب أن لسان الدين بن الخطيب كتب في (الإحاطة) ترجمة مفصلة لابن خلدون ، وقال إنه شرع في هذه الأيام يشرح أرجازى فى الفقه شرعاً لا غاية بعده . وقد نقل المقرى هذه الترجمة كاملة في كتابه فتح الطيب ^(١) .

وقد ذكر لسان الدين في (الإحاطة) بضعة رسائل بعث بها إلى صديقه ابن خلدون ، وذكر ابن خلدون في (التعريف) بضعة رسائل بيده وبين ابن الخطيب ^(٢) .

وكان ابن خلدون معجباً بصديقه ، مشهوراً بالشأن عليه ، يدل على ذلك قول المقرى ، وكان ابن خلدون كثير الشأن على لسان الدين بن الخطيب ، ولقد رأيت بخط العالم الشهير الشيخ إبراهيم الباعوني الشامي . . . و كنت أكثر الاجتماع به - ابن خلدون - بالقاهرة المحروسة ، للمودة الحاصلة بيني وبينه ، وكان يكثر من ذكر لسان الدين بن الخطيب ، ويورد من نظمه ونشره ما يشتفه الأسماع ، وينعقد على استحسانه الإجماع ، وتتقاصر عن إدراكه الأطاع ، ^(٣) .

ويقول ابن خلدون ، ومن مخاسن الموشحات للمنتأخرین موشحة ابن سهل ، وقد نسج على منواله فيها صاحبنا الوزير أبو عبدالله بن الخطيب شاعر الأندلس والمغرب لعصره ، ^(٤)

(١) فتح الطيب ٤ / ٦-١٧

(٢) التعريف ٨٢ ، ٩١ ، ٩٢ ، ١٢٣ ، ١١٥ ، ١٠٣ ، ١٢٨

(٣) المقدمة ٥٢٥

(٤) فتح الطيب ٤ / ١٧

ويذكر ابن خلدون في التعريف صلته بلسان الدين ، فقد كتب إليه لسان الدين لما فر من الأندلس وقدم على سلطان تلمسان ^(١) ، ورد عليه ابن خلدون ردا ينبيء عن مودة وإعزاز ^(٢) ، ويقول في موضع آخر « وكان الوزير ابن الخطيب آية من آيات الله في النظم والثر والمعارف والأدب ، لا يُسَاجِل مداه ، ولا يُهْتَدِي بمثل هداه ^(٣) » . ويقول إن ابن الخطيب بعث إليه من محبسه مستصرخاً ومتوسلاً ، نخاطب في شأنه أهل الدولة ، فلم تنجح وساطته ^(٤) . ويقول إنه شكا إليه تخلفه في الشعر ^(٥) .

دراساته الأدبية

(١) تحدث ابن خلدون عن دراسته كاسبق في أول الكتاب ، وعرفنا أنه قرأ القرآن الكريم على إمام في القراءات السبع ، وبعد أن استظرف القرآن الكريم قرأه على أستاذه بالقراءات السبع إفراداً وجمعياً في إحدى وعشرين ختمة ... وقرأ قصيدة الشاطبي: اللامية في القراءات والرأية في الرسم ، وكتاب التَّقْصِي لاحاديث الموطأ لابن عبد البر ، ودرس عليه كتاب جمة ، مثل كتاب التسهيل لابن مالك ، ومحضر ابن الحاجب في الفقه ، وفي خلال ذلك تعلم صناعة العربية على والده ، وعلى علماء تونس ، وحفظ كتاب الأشعار الستة ، والخمسة للأعلم الشنتمرى ، وشعر أبي تمام ، وشعر

(٢) التعريف ١٤٠

(٤) التعريف ٢٢٧

(١) التعريف ١٣٩

(٣) التعريف ١٥٥

(٥) المقدمة ٥١٠

المتنبي ، وكثيراً من أشعار الأغاني . ثم درس الحديث والفقـه والعلوم
العقلية إلخ^(١)

٢ - وهو يصرنا بدراساته وتمكنه من اللغة والأدب ، حين يتحدث
في المقدمة عن تعلم اللغة الفصحي ، وضرورة التطبيق في القول عد^(٢) ،
والحاجة إلى حفظ القرآن الكريم والحديث الشريف ، وما خلف العرب
من رانع الشعر والثرث ، ثم حين يتحدث عن الذوق ، وعن منهج التعليم في
البلاد الإسلامية ، الخ كما سبق في منهج التعليم ونظمه .

٣ - على أن الفصول القيمة التي قصرها على دراسة العلوم اللسانية
ثانية بآرائه ونظراته ، دالة على بصره بنشأة هذه العلوم وتطورها ، ومعرفته
بأمهات مراجعها ، وأشهر المؤلفين فيها ، فثلا يتحدث في علم النحو عن الخليل
وسيبويه وابن مالك والمخشري وابن الحاجب وابن هشام^(٣) ، ويتحدث
في علم اللغة عن الخليل والزبيدي والمخشري والشعالي وابن السكريت
و ثعلب^(٤) ، ويتحدث في علم البيان عن جعفر بن يحيى والماحظ وقدامة
والسكاكى ، والقزويني ، ويقرر أن المشارقة في علوم البلاغة أضيق من
المغاربة ، لأنهم أوفوا عمراناً من المغاربة ، ولأن العجم في المشرق قد أسهموا
في إنشاء البلاغة كالمخشري في تفسيره ، ثم يقرر أن المغاربة عنوا بالبديع
خاصة ، ولو لوعهم بتزيين الألفاظ ، ولسهولة البديع ، وحاجة البيان والبلاغة
إلى دقة النظر . ثم يذكر ابن رشيق مؤلف العمدة^(٥) .

ويتحدث في علم الأدب عن أدب الكاتب لابن فقيه ، وال الكامل للبرد ،

(١) التعريف ١٥ - ٥٥ (٢) المقدمة ٤٨٩ ٦ ٤٩٤ (٣) المقدمة ٤٨٣

(٤) المقدمة ٤٨٤ (٥) المقدمة ٤٨٧

والبيان والتبيين للجاحظ ، والنواذر لابي علي القالى ، ويقول إننا سمعنا من
شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول الأدب وأركانه هذه الكتب الأربع ،
وماسواها فتبع لها ، وفروع عنها ^(١) . وفي موضوع آخر يتحدث عن كتاب
الأغاني ^(٢) وعن العمدة لابن رشيق ^(٣) ثم يتحدث بعد ذلك عن اللغة
الفصحي والمرانة عليها ، وعن الذوق ، وعن الشعر والنشر حديثاً ينم على
بصر واطلاع .

ما السبيل إلى إمادة اللغة والأدب في رأيه ؟

١ - رأى أن لغة الحديث في عصره غير الفصحي ، وأن الطريقة إلى
تعلم اللغة الفصحي حفظ النصوص البلغية ، وهي القرآن الكريم والحديث
الشريف ، وما أثر عن البلغاء من شعر وكتب وخطب ، سواء أكانوا قدماه
أم مولدين . وبكثرة المحفوظ ، تنشأ الملكة ، فيصير الشخص كأنه نشا بين
العرب الفصحاء ، ثم ينميتها بالتعبير عما يجد في نفسه من الأفكار ، وهو كلما
مرّن قلمه رسخت ملكته ^(٤) .

وفي رأيه كما سبق أن دراسة النحو مجرد من التطبيق ومن الأدب
لا تجده ^(٥)

وقرر أنه لا بد من الذوق لمن يطمح إلى أن يكون أدبياً ، ويفهم من
شرحه للذوق أنه الملكة التي رسخت بحفظ كلام العرب وعمرسته ،
وتكرره على السمع ، والفتنة لخواص تراكيه ، حتى إن صاحب الذوق

(١) المقدمة ٤٨٨ (٢) المقدمة ٥٠٥ (٣) المقدمة ٥٠٥

(٤) المقدمة ٤٩٣ (٥) المقدمة ٤٩٤

إذا عرض عليه كلام خارج على الأسلوب العربي مجده ، وربما يعجز عن الاحتياج لذلك ، لأن الذوق أمر وجداني .

و واستعير لهذه الملكة عند ما ترسخ و تستقر اسم الذوق الذى اصطلح عليه أهل صناعة البيان ، وهو موضوع لإدراك الطعوم ، لكن لما كان محل هذه الملكة في اللسان من حيث النطق بالكلام ، كما هو محل لإدراك الطعوم ، استعير لها اسمه ، وأيضاً فهو وجداني للسان كما أن الطعوم محسوسة له ، فقليل له ذوق ، ^(١) و يرى أن الأعاجم الذين طرموا على اللغة العربية كالفرس والروم والترك بالشرق ، وكالبربر بالغرب لا يحصل لهم هذا الذوق ، لقصور حظهم في الملكة اللسانية العربية ، إلا إذا كان مرباهم بين العرب الفصحاء كالمخنثى وسيبوه والفارسي ^(٢) .

٢ - و قسم الكلام العربى إلى شعر و نثر ، و عاب العروضيين في تعريف الشعر بأنه الكلام الموزون المقفى ، و عرفه بأنه الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف ، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروى ، المستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله ، والخارى على أساليب العرب المخصوصة به ^(٣) .

وبهذا التعريف للشعر أدخل في أركانه الخيال ، وأخرج من الشعر الكلام الموزون المقفى الذي لا عاطفة فيه ولا خيال . أما النثر فهو كلام غير موزون ولا مقفى ^(٤) .

و كل منها يشتمل على فنون ومذاهب في القول ، فالشعر يشتمل على

(٢) المقدمة ٤٩٧

(١) المقدمة ٤٩٦

(٤) المقدمة ٤٩٩

(٣) المقدمة ٥٠٤

المهجاء والمدح الخ ، والنثر بعضه مسجوع ، وبعضه مرسى ، والقرآن خارج عن الوصفين . ثم تكلم عن اختصاص الشعر بأنواع من فنون القول كالنسيب ، وعن اختصاص النثر بأنواع ك الخطيب ^(١) .

ثم تحدث عن طريقة تعلم الشعر ، والظروف الميسنة لقرضه ، وعن تنقيحه ، ونقده ^(٢) . ونقل قصيدة لابن رشيق ، وشعرآ لغيره في الوصمة بالطريقة إلى ممارسته .

وذكر أن الشعر غير مقصور على اللسان العربي ، فقد كان في الفرس شعراء ، وفي اليونان شعراء ، ذكر منهم أرسطو في كتاب المنطق أو ميروس الشاعر وأثنى عليه ^(٣) . وذكر كثيراً من قصائد المؤلفين ، ومن الموسحات والأزجال .

ذئراً بن خلدون

موضوعاته :

وصل إلينا من مؤلفات ابن خلدون كتاب العبر ، ومقدمته ، وكتاب التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ، وبه بعض رسائل له .

أما المقدمة فقد تحدثت عن بعض موضوعاتها فيما سبق ، وهي كلها بحوث في علم الاجتماع وفلسفة التاريخ ، وأحوال الأمم ، من حضارة وبداءة ، وفي العلوم ونشأتها وأطوارها الخ . وقد اهتمى إلى كثير من عمل الأحداث التي تنتاب المجتمعات ، وعرف ما يذهبها من التشابه والترابط ، فوضع لها

قوانين عامة ، وأقيسة مطردة ، لم يفطن لها بهذه الصورة الكاملة أحد من قبله ، بل لم يتبيّن صدقها ، وتسكّشف قيمتها إلا بعده بعدهة قرون .

وأما التاريخ فقد تناول فيه تاريخ العرب في الجاهلية والإسلام ، وبعض أمم المشرق ، وأفاض في تاريخ البربر في شمالي إفريقيا ، وغارات أعراب المشرق من سليم وجسم ورياح وهلال وزغبة على دولتي صنهاجة ، وأطراف عمالك الموحدين . وسلك في هذا التاريخ خطوة مغايرة لخطبة الطبرى وابن الأثير وابن مسكونيه ، فبوب كتابه حسب الحوادث والدول لا حسب السنين ، على أن بعض المؤرخين سبقوه إلى هذه الطريقة ، كالمஸعودي في كتابه مروج الذهب وكتابه التنبيه والإشراف ، واليعقوبي في تاريخه ، وابن الطقطق في كتابه الفخرى وكتابه الآداب السلطانية .

وأما التعرّيف بابن خلدون فهو قصة حياته إلى قبيل وفاته بعام واحد ، ذكر فيه أصله وأحداث أسرته ، وأحداثه هو ، وثقافته ، وأساتذته ، وتحدث عن صلته بملوك المغرب وأمراءه ، وتقلبه في قصور تونس وبجاية وتلمسان وفاس ، وعن اعتقاله وتشريده ، ثم عن رحلته إلى الأندلس ، واتصاله بملك غرناطة ووزيره لسان الدين بن الخطيب ، وسفارته إلى ملك قشتالة ، وعن الجفوة التي عرضت بينه وبين ملك غرناطة ووزيره ابن الخطيب ، ثم عن عودته إلى تونس ، ثم رحلته إلى مصر وحياته فيها ، حتى

سنة ٨٠٧ هـ .

مصادره :

١ - ترسّل في كتابته في عصر كان يترسم طريقة ابن العميد والقاضي الفاضل ، وكان حامل لواء هذه الطريقة في الأندلس لسان الدين

ابن الخطيب ، وكان ابن خلدون صديقا له ومعجبا به . فليس بغرير أن ينشأ ابن خلدون على هذه الطريقة ، وأن يتسمها حينا من شبابه ، حتى اكتملت ملكته ، وتميزت شخصيته ، فظهر له أنها لا تصلح في الرسائل السلطانية ، وإن جرى معاصروه عليها ، فعدل عنها إلى النثر المرسل ، كما كان يكتب البلغاء الأولون ، كابن المقفع وأحمد بن يوسف والماحيظ ، وقد عاب طريقة معاصريه بقوله : « وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه في المشور . من كثرة الأسجاع ، والتزام التقافية ، وتقديم النسيب بين يدي الأغراض ، وصار هذا المشور – إذا تأملته – من باب الشعر وفنه ، ولم يفتقا إلا في الوزن ، واستمر المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة ، واستعملوها في الخطابات السلطانية ، وقصروا الاستعمال في المشور كله على هذا الفن الذي أرتفعه ، وخلطوا الأساليب فيه ، وهجروا المرسل وتناسوه ، وخصوصاً أهل المشرق ، وصارت الخطابات السلطانية لهذا العهد عند الكتاب الغفل جارية على هذا الأسلوب ، وهو غير صواب من جهة البلاغة ؛ لما يلاحظ في تطبيق الكلام على مقتضى الحال من أحوال الخطاب والمخاطب ، وهذا الفن المشور المفني أدخل المتأخرون فيه أساليب الشعر ، وخلط أن تنزع الخطابات السلطانية عنه ، إذ أساليب الشعر تنافيها اللوذعية ، وخلط الجد بالهزل ، أو الإطناب في الأوصاف ، وضرب الأمثال ، وكثرة التشبيهات والاستعارات . وجلال الملك والسلطان ، وخطاب الجمهور عن الملوك بالترغيب والترهيب ينافي ذلك ، وبيانه . وال محمود في الخطابات السلطانية انرسل ، وهو إطلاق الكلام وإرساله من غير تسجيح إلا في الأقل النادر ، وحيث ترسل الملكة إرسالا ، من غير تكلف له ، ثم إعطاء

الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال ، فإن المقامات مختلفة ، ولكل مقام أسلوب يخصه من إطناب أو إيجاز أو حذف أو إثبات أو تصريح أو إشارة أو كناية أو استعارة . . . وما حمل عليه أهل العصر إلا استيلاً العجمة على أسلتهم ، وقصورهم عن إعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال ، فعجزوا عن الكلام المرسل ، وبعد أمده في البلاغة ، وولعوا بهذا المسجع يلفقون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ومقتضى الحال فيه ، ويُجبرونه بذلك القدر من التزيين بالأسجاع والألقاب البدعية ، ويفلغون عما سوى ذلك . . .^(١) .

فهو إذا يرى أن النثر المسجوع المحلي بالبدع لا يلائم الرسائل السلطانية ، ويستبدل على ذلك بأنه لا يطابق مقتضى الحال ، ويعال لذلك بأن الكتاب عجزة عن تحقيق البلاغة ، فيحاولون ستراً عجزهم بزخارف من البدع . وقد حقق الترسيل في نثره السلطاني ، وفي كل ما كتب .

يقول عندما كتب للسلطان أبي سالم المريني : « واستعملني في كتابة سره ، والرسائل عنه والإنشاء لمخاطباته ، وكان أكثرها يصدر عنى بالكلام المرسل ، بدون أن يشاركني أحد من يتحلى الكتابة في الأسجاع ، لضعف انتحاحها ، وخفاء العالى منها على أكثر الناس ، بخلاف المرسل ، فانفردت به يومئذ ، وكان مستغرباً عندهم بين أهل الصناعة »^(٢) .

٢ - وفي قليل من الأحيان كان يسجع مثل كتاب عصره ، وذلك حين يكتب لهم ، يريد بذلك بحاجتهم ومشاركتهم في طريقتهم التي يؤثرون ، ويريد

(١) المقدمة ٥٠٠

(٢) التعريف ٧٠

أن يظفر قدره على مزاولته ما يزاولون . ولكن مع هذا اقتصر في سجنه ، ولم يتكلف البديع ولا سيما التوربة والتوجيه كما تكلفهم لسان الدين وغيره .

من ذلك قوله في رسالته إلى لسان الدين : يا سيدى ، ونعم الذخر الأبدى ، والعروة الوثقى التي اعتقلتها يدى ، أسلم عليكم سلام القدوم ، على المخدوم ، والخضوع للملك المتبع . لا بل أحبيكم تحية المشوق ، للعشوق ، والمدلج ، للصباح المتبلج ، وأقر ما أتتم أعلم بصحيف عقدي فيه من حب لكم ، ومعرفتكم بقدركم ، وذهبى إلى أبعد الغايات في تعظيمكم والثناء عليكم ، والإشادة في الآفاق بمناقبكم ، ديننا معروفاً وسجية راسخة ، يعلم الله وكفى به شهيداً . . . فلا تظنوا بي الظافون ، ولا تصدقوا في التوهمات ، فإننا من علمتم صداقه ، وسذاجة ، وخلوصاً واتفاقاً ظاهر وباطن ، أثبت الناس عهداً ، وأحفظهم غيماً ، وأعرفهم بوزن الإخوان ، ومزايا الفضلاء . . . فحمدت الله لكم على الخلاص من ورطة الدول ، على أحسن الوجوه ، وأجمل الخارج ، الحميدة العواقب في الدنيا والدين ، العائدية الأيام ، بحسن المال ، في المخالف من أهل ولد ومتاع وأثر ، بعد أن رضتم جموع الأيام وتوقفتم قلل العز ، وقد تم الدنيا بحذافيرها ، وأخذتم بأفاق السهام على أهلها . والله يلحفكم جميعاً رداء العافية والستر ، ويحفظ عليكم ما أسبغ من نعمته ، ويحرركم على عوائد لطفه وعنائه ،^(١)

ومن ذلك قوله في افتتاح المقدمة : الحمد لله الذي له العزة والجبروت ، وبيده الملك والملكون ، وله الأسماء الحسنى والنعوت ، العالم فلا يعزب عنه ماظهره النجوى أو يخفيه السكوت ، القادر فلا يعجزه شيء في السموات

— ١٤٧ — (١) التعريف .

والارض ولا يفوت ، أنشأنا من الأرض نَسَما ، واستعمرنا فيها أجيالا وأئمَا ، ويسّر لـنـا منها أرزاقا وقسا ،^(١) لكنه بعد هذه الخطبة عاد إلى الترسـل في المقدمة كلها .

٣ - يتسم أسلوبه في الغالب بالجزالة والقوة ، وبخاصة إذا صدر عن عاطفة ، أو كان دفاعا عن فكرة ، من ذلك قوله في الدفاع عن العباية وهارون الرشيد « ومن الحكايات المدخلة للمؤرخين ما ينقلونه كافة في سبب نكبة الرشيد للبرامكة من قصة العباية أخته مع جعفر بن يحيى ابن خالد مولاه ، وأن العباية تحيلت عليه في التهاب الخلوة به ، لما شغفها من حبه ، حتى وافتها حالة سكر ، فحملت ، وَوُشِّيَّ بذلك للرشيد ، فاستغضب . وهيات ذلك من منصب العباية في دينها وأبويتها وجلالها ، وأنها بنت عبدالله بن عباس ، ليس بينها وبينه إلا أربعة رجال ، هم أشراف الدين وعظام الملة من بعده ، والعباية بنت محمد المهدي بن عبد الله بن أبي جعفر المنصور بن محمد السجاد بن علي أبي الخلفاء ابن عبد الله ترجمان القرآن ابن العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ، ابنة الخليفة ، أخت الخليفة ، محفوظة بالملك العزيز والخلافة النبوية ، وصحبة الرسول وعمومته ، وإقامة الملة ونور الوحي ، ومبطر الملائكة من سائر جهاتها ، قريبة عهد يداوةعروبية وسداجة الدين ، بعيدة عن عوائد الترف ، ومراتع الفحش فain يطلب الصون والعفاف إذا ذهب عنها ؟ أو أين توجد الطهارة والذكرة إذا فقدا من بيتهما ؟ أو كيف تلهم نسبها بمحضر بن يحيى ، وتدنس شرفها العرب بمولى من موالي العجم ؟ أبلّكة جده من الفرس ؟ أم بولاء جدها من عمومة

الرسول وأشراف قريش؟ وكيف يسوغ من الرشيد أن يصهر إلى موالي الأعاجم، على بعد همة، وعظم آبائه؟ ولو نظر المتأمل في ذلك نظر المنصف، وقام العباسة بابنة ملك من عظامه ملوك زمانه لاستكف لها عن مثله مع مولى من موالي دولتها، وفي سلطان قومها، واستنكره، وبلغ في تكذيبه. وأين قدر العباسة والرشيد من الناس؟ وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة، واحتياجهم أموال الجباية...،^(١)

٤ - وهو يؤثر الترسل الخالي من الجزالة حين يشرح قضية علمية لا عاطفة تزجيها، ولا حماسة تلابسها، مثل قوله: «الملك منصب طبيعي للإنسان، لأننا قد ينشأ أن البشر لا يمكن حياتهم وجودهم إلا باجتماعهم وتعاونهم على تحصيل قوتهم وضروراتهم، ولماذا اجتمعوا دعت الضرورة إلى المعاملة واقتضاء الحاجات، ومد كل واحد منهم يده إلى حاجة يأخذها من صاحبه، لما في الطبيعة الحيوانية من الظلم والعدوان، وينانعه الآخر عنها بمقتضى الغضب والألفة، ومقتضى القوة البشرية، فيقع التنازع المفضي إلى المقابلة، وهي تؤدي إلى المحرج وسفك الدماء وإذهاب النفوں... فاستحال بقاویهم فوضی دون حاکم يزع بعضهم عن بعض، واحتاجوا من أجل ذلك إلى الوازع، وهو الحاکم عليهم».^(٢)

٥ - وإليه يرجع الفضل في وضع كثير من المصطلحات التي جرت على الأقلام والألسن من بعده، مثل: العمران البشري، الاجتماع الإنساني، العمران البدوي، الأمم الوحشية، الملكة، الغاية التي تجري إليها العص الملك. المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب. الخدمة ليست من الطبيعى، الخ.

٦ - على أن اللغة واته ، وخضعت له ، فطوعها للتعبير عن الأفكار والمعانى الدقيقة ، فى أصول الاجتماع . وأثار البيئة فى الجسم والعقل والخلق ، وأحوال الحضر والبدو ؛ وقيام الدول وقوتها ، وضعفها وسقوطها الخ . كقوله : إن الدولة المستجدة إنما تستوى على الدولة المستقرة بالطاولة لا بالمناجزة ^(١) وقوله : إن المتمولين من أهل الأمصار فى حاجة إلى الجاه والمدافعة ^(٢) . وقوله : إن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره . وإنها مؤذنة بفساده ^(٣) . وقوله : إن السُّكُب هو قيمة الأعمال البشرية ^(٤) .

٧ - وكان أحيانا يخالف قوانين الصرف ، وينخرج على اللغة ، مثل إدخال الواو في خبر لا ، فيقول : لا بد وأن . وجعله الخبر أو جواب الشرط استثناء أو استدراكا ، مثل : إنه وإن كان كذا إلا أنه أو لكنه . واستعماله الفعل تعود متعديا بعل . ومثل استعماله كلمة الجيل كثيرا للدلالة على القرن أو الجنس من الناس ، وهو في اللغة الطبقية المعاصرة في حقبة واحدة ، واستعماله المنحال لاسم آلة لرفع الأجسام ، وجمعه العصبية على عصائب ، والصناعة على صنائع ، وكلمة تفتقوا بمعنى افتقوا .

٨ - وأحيانا يطيل الجملة ، ويدخل فيها جملة أخرى ، حتى يتبع المعنى ، ويصلح الأسلوب لتأويلات شتى ، وأحيانا يكرر كلمات خاصة لا داعي لذكرها ، مثل قوله : وقد كان لأول هذه المائة خرج بالسوس رجل من المتصوفة يدعى التَّوَبَذِي — في بعض النسخ التَّوَزَّرِي نسبة إلى مدينة توزر في جنوب تونس — عمدا إلى مسجد ماسة بساحل البحر هنالك ،

(١) المقدمة ٢٥٠ (٢) المقدمة ٣٠٩

(٣) المقدمة ٣١٢ (٤) المقدمة ٢١٩

وزعم أنه الفاطمي المنتظر ، تلييساً على العامة هنالك . بما ملأ قلوبهم من الحدثان بانتظاره هنالك ^(١) فكرر كلية هنالك ثلاث مرات .

ومثل قوله : « إن عصابة الدولة وقوتها القائمين بها المهددين لها لا بد من توزيعهم حصصاً على الملك والشغور التي تصير إليهم ، ويستولون عليها لحمايةها من العدو ، وإضفاء أحكام الدولة فيها من جباية وردع وغير ذلك ، فإذا توزعت العصابات كلها على الشغور والملك فلا بد من نفاد عددها ... وما كانت العصابة موفرة ، فلم ينفذ عددها في توزيع الحصص على الشغور والنواحي بقى في الدولة قوة على تناول ما وراء الغاية ، حتى ينفسح نطاقها إلى غايتها ، والعلة الطبيعية في ذلك هي أن قوة العصبية من سائر القوى الطبيعية ، وكل قوة يصدر عنها فعل من الأفعال فشأنها ذلك في فعلها » ^(٢)

ولقد يكون مردُّ ما في أسلوبه من هنات ، وما فيه من تداخل إلى نشأته البربرية ، وإلى أن اللغة كانت في عهده غير قوية ، سواء في الأندلس أم في المغرب .. وقد سبق أنه ذهب إلى أن الملكة الأولى للأعاجم تحول بينهم وبين إجاده الفصحى ، إلا إذا نشروا في بيته تأخذ نفسها بالفصاحة وسلامة العبارة .

اثره فيمن بعده

أسلفت أن طريقة ابن خلدون في البحث ومعالجة الموضوعات قد انتقلت إلى تلمسان المقرizi (٥٨٤٥) ، وقد ظهر هذا الأثر في أسلوبه وتفكيره وطريقة عرضه لما يتناول في كتبه السخيرة ، وكان المقرizi معجبا

بابن خلدون ومقدمته ، ورأى أنها مبتكرة لم تسبق ، ولم تجد العقول بمثلها ،
كما أسفلت في حياة ابن خلدون ^(١) .

وقد تلمذ عليه وتأثر بآرائه الحافظ بن حجر العسقلاني المحدث المؤرخ
(٥٨٥٢) . وتأثر بآرائه السخاوي ، وظهر تأثيره في عدة فصول من كتابه
(الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ) .

ونحا القلقشندى (٥٨٢١) نحوه ، ونقل عنه فصولاً في كتابه صبح
الأعشى . ثم اعتمد كثير من العلماء والمؤرخين للحركة العلمية والأدبية على
مقدمة ابن خلدون .

وفي مطلع العصر الحديث كان أثر مقدمة ابن خلدون عظيماً في النثر
العربي ، لأن أسلوبها كان قدوة الكتاب في الأدب والسياسة والاجتماع ،
وقد حببه إليهم ترسله ، وطواعيته ، وخلوه من تكلف السجع والبديع ،
ومرونته وإتساعه للتعبير عن المعانى التى تجول بالنفس ، وللترجمة من
اللغات الأخرى . ومن الإنصاف أن نذكر أن كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع
كان له نصيب أيضاً .

ومنذ نصف قرن تقريباً بدأت المطبع تكثر من طبع الكتب
اللغوية والأدبية ، وأقبل المثقفون على اقتنائها وقرائتها ، فشاركت مقدمة
ابن خلدون في تأثيرها ، وتعاونت كلها على السمو بالعبارة ، إلى حد أن
كثيراً من كتاب العصر الحاضر لا يقلون بلاغة عن أمراء البيان في العصر
العباسي الأول .

شـ—حـ—رـ

مارس ابن خلدون الشعر كـ مارس الكتابة ، يقول : « ثم أخذت
نفسى بالشعر ، فانثال علىّ منه بحور ، توسطت بين الإجاده والقصور ، (١)
 فهو يحس أن شعره لم يبلغ الجودة ، ويحار في تعليل ذلك فيقول ، ذاكرت
يوماً صاحبنا أبي عبد الله بن الخطيب وزير الملوک بالأندلس من بنى الأحرم ،
وكان الصدر المقدم في الشعر والكتابة ، فقلت له : أجد استصعباً علىّ في
نظم الشعر متى رمته ، مع بصرى به ، وحفظى للجيد من الكلام ، من القرآن
وال الحديث ، وفنون من كلام العرب ، وإن كان محفوظاً قليلاً . وإنما أتيت
والله أعلم من قبل ما حصل في حفظى من الأشعار العلمية والقوانين
التأليفية ، فإني حفظت قصيدة الشاطبي الكبرى والصغرى في القراءات ،
وتدارست كتابى ابن الحاجب في الفقه والأصول ، وجمل الخونجى في
المنطق ، وبعض كتاب التسهيل ، وكثيراً من قوانين التعليم في المجالس ،
فامتنأ محفوظاً من ذلك ، وخدش وجه الملكة التي استعددت لها بالمحفظ
الجيد من القرآن وال الحديث وكلام العرب ، فعاق القرىحة عن بلوغها : فنظر
إلى ساعته معجباً ، ثم قال : الله أنت ، وهل يقول هذا إلا مثلك ؟ (٢) .
على أن لسان الدين يقول في نثر ابن خلدون وشعره : « وأما نثره
وسلطانياته السجعية خليج بلاغة ، ورياض فنون ، ومعادن إبداع ، يفرغ
عنها يراعه الجرىء شبيهة البداءات بالخواتم في نداوة الحروف ، وقرب
العبد بجرأة المداد ، وتفوز أمر القرىحة ، واسترسال الطبع . وأمانظمه فهمض »

لها العهد قدماً في ميدان الشعر ونقده باعتبار أساليبه ، فانتال عليه جوه ، و هان عليه صعبه ، فأقى منه بكل غرية . ثم ذكر خمس قصائد له ^(١) .

أغراضه شعره

في كتاب التعريف إحدى عشرة قصيدة ، في الاستعطاف والتهنئة والمدح والاعتذار وفي مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، على أن ابن خلدون يذكر أنه أشد السلطان أبو سالم المريني قصائد أخرى غير القصائدتين اللتين أثبتما في التعريف ، ولم تحضره ليثبتتها ^(٢) . وفي نفح الطيب قصيدة لابن خلدون في مدح عمر بن عبد الله ملك المغرب ليست في كتاب التعريف ^(٣) .

مصادنه

١ - يُتَسَمُ شعره بالجزالة والقوية أحياناً ، وبالرقابة والعدوبية أحياناً ، في عصر موسوم بالضعف ، ولا شك أن هذا أثر لقراءاته وحفظه رائع الشعر وجده ، فمن شعره الجزل قوله في قصيده التي استعطاف بها السلطان ليطلقه من حبسه :

على أى حال للبالي أعاتب كفى حزناً أنى على القرب نازح وأنى على حكم الحوادث نازل وهي كما يقول طولية تناهز مائى بيت ، لكنه لم يذكر منها غير	وأى صروف للزمان أغالب وأنى على دعوى شهودي غائب تسلمني طوراً وطوراً تحارب
---	--

خمسة ^(٤) .

(١) نفح الطيب ٤ / ١١ - ١٧ . (٢) التعريف ٧٦ .

(٣) نفح الطيب ٤ / ١٤ . (٤) التعريف ٦٧ .

وقوله في مدح السلطان أبي العباس بتونس :

هل غير بابل للغريب مؤمل
أو عن جنابك للأمان معدل ؟
هي همة بعشت إليك على التوى
عزماً كما شحد الحسام الصيقل
والغيث حيث العارض المتهلل
حيث الملوك الصيد والنفر الأولى
شادوا على التقوى مبانى عزهم
أدراك ، والفاروق جد الأول ^(١)
ولأنك إن فضلاوا أعز وأفضل
وبناوك العالى أشد وأطول ^(٢)
ومن شعره الرقيق العذب تغزله في قصيدة التي ألقاها في احتفال
السلطان أبي سالم ب ولد النبي صلى الله عليه وسلم سنة ٧٦٢ هـ

واسرقن في هجرى وفي تعذيبى
وأطلن موقف عبرتى ونجبي
لو داع مشغوف الفؤاد كثيب
قلبي رهين صباة ووجيب
فشرقت بعدهم بماه غروب
رحمك فى عذلى وفي تأنيبى
غربت ركانهم ودمى سافح
يا ناقعا بالعتب غلة شوقهم

(١) أبو حفص عمر بن الله الصنهاجى ، ويعرف بأزناج ، وعمر ، سماه ابن تومرت عمر ، كان من أوائل أصحاب ابن تومرت منشئ دولة الموحدين ، ووزر لعبد المؤمن بن علي . وإليه تنسب الدولة الحفصية (العبر ٦ / ٢٧٥ والمعجب ١٢٥) .

الفاروق : ذكر ابن خلدون في العبر (٦ / ٢٧٥) أن نسب الحفصيين ينتهي

(٢) التعريف ٢٢٣

إلى عمر بن الخطاب

يُستَعْذِب الصَّبْ المَلَامَ وَإِنِي مَاءَ الْمَلَامَ لَدِيْ غَيْرِ شَرْوَبْ

* * *

ثُمَّ عَدَدُ مَعْجَزَاتِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَمَدْحُهُ، ثُمَّ
اسْتَغْاثَ بِهِ :

يَا خَيْرَ مَدْعُوِّ وَخَيْرَ مَجِيبِ
فِيمَا لَذَكْرُكَ مِنْ أَرْبَعِ الطَّيْبِ
فِي مَدْحُكِ الْقُرْآنِ كُلُّ مَطِيبٍ؟
تَدْنِي إِلَىَ الْفَوْزَ بِالْمَرْغُوبِ
وَأَحْطِ أَوْزَارِي وَإِصْرَ ذَنْبِي
إِنْضَاءَ كُلَّ نَجِيَّةٍ وَنَجِيبِ
مَاشِئَةَ مِنْ خَبِيبٍ وَمِنْ تَقْرِيبِ
أَنْفَاسِ مُشْتَاقِ إِلَيْكَ طَرُوبِ
حَنُوا لِمَغْنَاهَا حَنِينَ التَّيْبِ

: مَلْكُهُ : وَاسْتِيلَانَهُ عَلَى سَالِمِ الْبَحْرِ، وَاسْتِيلَانَهُ عَلَى مَلْكِهِ
تَزْجِيهِ رَيْحُ الْعَزْمِ ذَاتُ هُبُوبِ
يَصْدُعُنَ لَلْحَادِثِ الْمَرْهُوبِ
وَسَطَا الْمَهْدِي بِفَرِيقِهِ الْمَغْلُوبِ
وَاسْتَأْثِرُوكَ بِتَاجِهِ الْمَعْصُوبِ
كَرُومَا بِهَا فِي مَشْهَدِ وَمَغِيبِ
فَلَقَدْ شَهَدَنَا مِنْهُ كُلُّ عَجِيبِ
تُقْنَادَ بِالْتَّرْغِيبِ وَالْتَّرْهِيبِ

إِنِي دَعَوْتُكَ وَأَنْقَا يَا جَابِتَيِ
قَصَرْتُ فِي مَدْحِي فَإِنْ يَكْ طَيْبًا
مَاذَا عَسَى يَبْغِي الْمَطِيلِ وَقَدْ حَوَى
يَا هَلْ تَبْلُغُنِي الْلَّيَالِي زَوْرَةً
أَحْوَ خَطِيبَتِي يَا خَلَاصِي بِهَا
فِي فَتِيَّةِ هَجَرُوا الْمُنْفِي وَتَعْوِدُوا
يَطْوِي صَحَافَتِ لِيَلَمْ فَوْقَ الْفَلَّا
إِنْ رَأَيْتُمُ الْحَادِي بِذِكْرِكَ رَدَدُوا
أَوْ غَرَدَ الرَّكَبُ الْخَلْيُ بَطِيَّةً
ثُمَّ اتَّقَلَ إِلَىَ عَبُورِ السُّلْطَانِ أَبِي سَالِمِ الْبَحْرِ، وَاسْتِيلَانَهُ عَلَى مَلْكِهِ
سَائِلُهُ طَامِي الْعُبَابِ وَقَدْ سَرَى
تَهْدِيهِ شُهْبُ أَسِنَةَ وَعَزَانِمَ
حَتَّىَ انْجَلَتْ ظَلْمُ الْضَّالِّ بِسَعِيهِ
يَا بْنَ الْأَلَى شَادُوا الْخَلَافَةَ بِالْتُّقَىِ
جَعَوْا لِحْفَظِ الدِّينِ أَىْ مَنَاقِبَ
اللَّهِ بِجَدْكَ طَارِفَا أَوْ تَالَدَأَ
كَمْ رَهْبَةً أَوْ رَغْبَةَ بَكَ، وَالْعَلَا

لا زلت مسروراً بأشرف دولة ييدو المهدى من أفقها المرفوب
 تحى المعالى غادياً أو رائحاً وحيداً سعدك ضامن المطلوب
 ٢ - وهو بارع الوصف ، رائع التصوير ، فقد أرسل ملك السودان
 هدية إلى السلطان أبي سالم ، فيها زرافة ، فمدحه ابن خلدون وهناء ، وبدأ
 قصيدته بغزل رقيق ثم ذكر اتصاله به ، وغبطته بالحظوة عنده ، ثم وصف
 الزرافة ، فذكر لونها ، وحيها لحياة الغابة ، وطول جيدها ، وقدرتها على أن
 تطول به ما علا ، وعجزها عن أن تناول به ما سفل ، والمشقات التي احتملتها
 حتى وصلت :

ورقمة الأعطاف حالية
 موشية بوشائع البرد
 وحشية الأنسب ما أنسَتْ
 في موحش البيداء بالقود
 شرف الصرُوح بغير ما جهد
 ولربما قصرت عن الوهد
 طالت رموس الشاحنات به
 قطعت إليك تناها ووصلت
 إِسَادَهَا بِالنَّصْ وَالْوَخْدَ (١)
 تَخْدِي على استصعبها ذللاً
 وتبث طوع القُنْ وَالْقِدَّ (٢)
 ثم أعقب ذلك ب مدح السلطان (٣) :

ويقول في وصف كتابه العبر ، وقد أهداه إلى السلطان أبي العباس :
 وإليك من سير الزمان وأهله
 عبراً يدين بفضلها من يعدل
 غبروا فتجمل عنهم وتفصل
 صحفاً تترجم عن أحاديث الأولى

(١) تناهف : صحاري . الإِسَادَ : الإِغْذَاذُ في السير أو سير الليل كله أو سير
 الليل والنهر مع النص : حيث الناقة مثلاً على أن تجود بأقصى سرعتها . الوخد :
 سعة الحظوظ في المشي . (٢) القن : العبد . القد : سير تربط به الدابة

بُدِئَ التَّبَاعُ وَالْعَالِقُ سَرَّهَا
وَالْقَائِمُونَ بِمَلَةِ الْإِسْلَامِ مِنْ
لَحَصَّتُ كِتَابَ الْأَوَّلِينَ جَمِيعَهَا
وَأَنْتُ حُوشِيُّ الْكَلَامَ كَأَنِّي
أَهْدَيْتُ مِنْهُ إِلَى عَلَاكَ جَوَاهِرًا
وَجَعَلْتُهُ لِصِوانِ مَلَكَ مَفْخِرًا
وَمُنْوِدُ قَبْلِهِمْ وَعَادُ الْأَوَّلُ
مُضِرٌّ وَبِرْ بَرْهُمْ إِذَا مَا حَصَّلُوا
وَأَتَيْتُ أَوَّلَهَا بِمَا قَدْ أَغْفَلُوا
شَرِدُ اللِّغَاتِ بِهَا لَنْطَقَ ذُلَّل
مَكْنُونَةً وَكَوَاكِبًا لَا تَأْفُلُ
يَبِيَّنُ النَّدِيُّ بِهِ وَيُزِّيَّ هُوَ الْمَحْفِلُ^(١)

٢ - وإذا ما استعطف واعتذر تسلل إلى القلوب بالاستهالة ، ويحسن
الدافع عن نفسه ، وتبشره ساحته ، والتسلل بضعفه ، وذكر نعم الذي
يعتمد إليه .

فقد وشي سودون نائب السلطان برقوق بين السلطان وابن خلدون ،
وكان ينقم عليه عصيانه في أحکامه القضائية ، وكان الظاهر برقوق نفسه
ينقم على الفقهاء بعض فتاواهم التي أجبرهم عليها منطاش أيام الفتنة ، فتوسل
إليه ابن خلدون بقصيدة ، فغافل السلطان عنه مدة ، ثم عاد إلى رضاه
وإحسانه .

وفي قصيدة الاعتذار الطويلة ، غاية ما يقال في استجلاب الرضا ،
 واستدرار العطف والصفح ، مثل قوله في خطاب (الجو باني) الذي سيطالع
السلطان بالقصيدة .

سِيدِي وَالظُّنُونَ فِيكَ جَمِيلَه
وَأَيْادِيكَ بِالْأَمَانِي كَفِيلَه
لَا تَحْلُّ عَنْ جَمِيلِ رَأِيكَ إِنِّي
مَا لِيَ الْيَوْمَ غَيْرُ رَأِيكَ حِيلَه

وأصحاب طعنى كا اصطنعت ياسدا هيد من شفاعة أو وسيلة
لا تُضِعْنى فلست منك مُضيئا ذمة الحب والأيادي الجميلة
وأجرني فالخطب عض بنائيه وأجري إلى حمای خيوله
ولو ان دعا بنسري داع كنت لي خير عشر وفصيلة
ثم قوله في مدح السلطان والإشادة بنعماته :

لِي أَغْمُطُ الْحَقُوقَ وَأَنَّ شَكْرَ نَعْمَاهُ كَمْ عَلَىَ الْجَزِيلَةِ ؟
إِنْ يَكُنْ ذَا فَقْدَ بِرَئَتِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَخَنَّتْ جَهْرًا رَسُولَهُ
طَوْقَوْنَا أَمْرَ الْكِتَابِ فَكَانَتْ لِقَدَاحَ الظُّنُونِ فِينَا بُجُيلَةٌ^(١)
لَا ، وَرَبُ الْكِتَابِ أَنْزَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى قَلْبِ مَنْ وَعَى تَنْزِيلَهِ
مَا رَضِيَنَا بِذَاكَ فَعْلَا وَلَا جَهَنَّمَاهُ طَوْعاً وَلَا اقْتِفَيْنَا دَلِيلَهِ
إِنَّمَا سَامَنَا الْكِتَابَ حَلَوْمٌ لَا يَرْجُى دَفَاعَهُ بِالْحَلِيلَةِ

غىر ئى وشى بذكرى واش يتقىچى أوتارە وذھولە

يرجى ذنب دهـره لـيقيله بـحـيـاة السـلـطـان منـكـم قـبـولـه يـشـتـكـي جـدـب عـيـشـه وـمـحـولـه لا يـضـيع الـكـرـيم يـوـما نـزـيلـه ^(٢)	وأـجلـ المـلـوك قـدـراً صـفـوحـا فـاقـبـلـوا العـذـر إـنـنا الـيـوـم نـرـجـوـهـا وـأـعـيـنـوا عـلـى الزـمـان غـرـيـباـهـا جـارـكـم، ضـيـفـكـم، نـزـيلـ حـامـكـم
---	--

٤ - وقصائد علی قاتها تمتاز بالطول . فقصيدة التي يعتذر فيها للظاهر
برفوق في سبعة وستين بيتا ، وذكر من قصيدة التي قاتها في حفل السلطان
أبي سالم بمولد النبي سبعة وأربعين بيتا ، وذكر من قصيدة في تهنئته بهدية
ملك السو دان سمعة وثلاثين بيتا ، واستعطف السلطان أنا عنان بقصيدة قال

(١) يشير إلى فتوى المقرizi وابن الفرات وغيرهما بأن الملك الظاهر برقوق
يجوز قتاله لأنه يستعين على قتال المسلمين بالنصارى . وكانت مؤامرة من الخارجين
عليه ، فهو هو على رجال الدين وادعوا أن في جيشه ٦٠٠ نصراني .

إنها ناهزت مائة بيت ، لكنه لم يذكر منها غير خمسة أبيات^(١) ، وله مدحه للسلطان أبي العباس سلطان تونس في مائة بيت واثنين^(٢)

٥ - وبعد فإنه في شعره كما كان في ثراه يجري مع الفطرة ، لا يتوقف ليقتضي لوناً من البديع ، ولا يتجسس^{*} ليعبر بنوع من أنواع الألاعيب اللغظية ، وإنما يتونخى المعنى ويحرج على، ويتوخى التعبير الدقيق للمعنى الذي يريد ، ثم تعدد في القصيدة الواحدة موضوعاتها ، وتتعدد في كل موضوع معانيه ، ولكنها يسلسلها ويرتبها .

على أنه لا يعتمد الربط بين موضوع وموضوع ، ولا يتحايل في الانتقال من غرض إلى غرض .

ولاشك أن هذا أثر من دراسة المنطق ، وقد أسلفت أنه نبغ فيه ، ونال جوانز الأساتذة ، وقال ابن الخطيب إنه ألف فيه كتابا . ثم إنه درس العلوم العقلية الأخرى ، فتعاونت مع المنطق على دقة تعبيره ، وانضباط تصويره ، وترتيب تفكييره .

٦ - ولكن شعره مع هذا موسوم بقلة الخيال وضحوطه ، ويظهر أن العلوم العقلية قد عدت على خياله الأدبي كما سبق في شكواه من ذلك إلى صديقه ابن الخطيب .

وفي بعض الأبيات تضعف عبارة بين عبارات قوية ، مثل قوله في مدح السلطان أبي العباس بتونس :

هذا أمير المؤمنين إمامنا في الدين والدنيا إليه المؤمل

هذا أبو العباس خــير خــليفة
مستنصر بالله في قــهر العــدا
فــلأنت أــعلى المــالكــين وإن غــدوا
قــايســ قدــيــما منــكم بــقدــيــهم
شــهدــت له الشــيمــ التي لا يــجهــلــ
وعــلى إــعــانــة رــبــه مــتــوــكــلــ
يــتســابــقــون إــلــى العــلــامــ وأــكــلــ
فــالــأــمــرــ فــيــه وــاضــحــ لــا يــجــهــلــ
فــهــاتــانــ الــعــبــارــاتــانــ (ــوــعــلــى إــعــانــة رــبــه مــتــوــكــلــ) دــ(ــفــالــأــمــرــ فــيــه وــاضــحــ لــا يــجــهــلــ)
ناــزــلــتــانــ عنــ جــوــ القــصــيــدــةــ العــامــ .

وــأــحــيــاناــ يــجــرــى فــي مــضــمــارــ الــمــبــالــغــةــ ، كــاــفــى الــأــيــاتــ الســابــقــةــ ، وــلــقــدــ يــعــتــذــرــ لــهــ
بــأــنــ الســلــطــانــ أــبــاــ العــبــاســ كــاــنــ أــقــوــى ســلاــطــينــ الــمــغــرــبــ ، عــلــى أــنــ مــبــالــغــاتــهــ قــلــيــةــ
وــغــيــرــ مــغــرــقــةــ فــيــ الــغــلــوــ .

وــمــنــ ذــلــكــ قــوــلــهــ فــي مدــحــ الســلــطــانــ أــبــيــ العــبــاســ :

يــاــبــنــ الــخــلــافــ وــالــدــيــنــ بــنــورــهــمــ
نــهــجــتــ ســبــيــلــ الــحــقــ بــعــدــ دــرــوــســ
حــاطــ الرــعــيــةــ بــالــســيــاســةــ فــاــنــضــوــتــ
أــســدــ يــحــامــيــ عــنــ حــمــيــ أــشــيــالــهــ
قــســمــاــ بــمــوــشــيــ الــبــطــاحــ وــقــدــ غــدــتــ
مــنــ تــخــتــالــ زــهــوــآــ فــيــ ثــيــابــ عــرــوــســ

* * *

لــبــقــاــكــ حــرــرــ لــلــأــنــامــ وــعــصــمــةــ وــحــيــاةــ أــرــواــحــ لــنــاــ وــنــفــوــســ
وــلــأــنــتــ كــافــلــ دــيــنــنــاــ بــحــيــاــةــ لــوــلــاــكــ ضــيــعــ عــهــدــهــاــ وــتــوــســىــ
وــفــيــ قــلــلــ جــدــآــ مــنــ عــبــارــاتــ ســمــاتــ المصــطــلــحــاتــ الــعــلــمــيــةــ ، مــثــلــ قــوــلــهــ فــيــ
الــقــصــيــدــةــ الســابــقــةــ :

(١) التعريف ٢٣٦ (٢) التعريف ٤٢ دروس ذهب. خيس: مسكن الأسد

والناصر الدين القويم بعزمـة طرد استقامتها بغـير عـكوس
 والطرد والعـكس من اصطلاحـات المنطق
 وفي بعضـها أثـارة من تعاـيـر العـلـوم ، مثل قوله في مدح الرسـول :
 قـصـرـت في مدـحـي إـنـ يـكـ طـيـباً فـبـهـ لـذـكـرـكـ مـنـ أـرـيجـ الطـيـبـ (١)
 وـلـهـ قـالـبـ أـسـلـوـبـ يـعـبـرـ بـهـ عـنـ إـعـجـابـهـ كـشـيرـآـ ، ذـلـكـ بـأـنـهـ يـكـرـرـ (ـاللهـ كـنـاـ)ـ
 فـنـلاـ يـقـولـ :
 اللـهـ مـاـ شـادـواـ هـنـاكـ وـأـثـلـواـ (٢)
 اللـهـ مـنـ خـلـقـ كـرـيمـ فـيـ النـدـيـ (٣)
 اللـهـ مـنـكـ السـابـقـ المـتـمـهـلـ (٤)
 اللـهـ مـنـكـ مـؤـيـدـ عـزـ مـاتـهـ (٥)
 اللـهـ عـهـدـ الـطـاعـنـينـ وـغـادـرـواـ (٦)
 اللـهـ بـجـدـكـ طـارـفـاـ أوـ تـالـدـاـ (٧)
 اللـهـ مـنـ إـذـ تـأـوـيـ بـنـيـ (٨)
 وـلـهـ مـنـ بـعـدـ حـادـثـةـ النـوـيـ (٩)

(٢) التعـريف ٢٣٥

(٦) التعـريف ٧٠

(٩) التعـريف ٨٨

(٢) التعـريف ٢٢٤

(٥) التعـريف ٢٣٦

(٨) التعـريف ٧٥

(١) التعـريف ٧٢

(٤) التعـريف ٢٣٦

(٧) التعـريف ٧٣

الحاكمية

وبعد : فهذه صفحات من ابن خلدون العالم ، المؤرخ ، الاجتماعي ، الكاتب ، الشاعر ، المبدع في عصر الجمود والتقليد ، المترسل في عصر الزينة والزخرف وتسكيل المعانى بالقيود .

هذه صفحات من عالم عبقرى ، ومفسر فذ ، وأديب مجيد ، قصدت^٩ بجملتها أن أضع حجرآ فى تمثاله ، وأن يكون لي نصيب فى التنويم بحملاته ، وأن توحى إلينا عبقريته بأن النبوغ لا وطن له ولا إقليم .

فليشق علاقنا ، وأدباً نباً بأنفسهم ، وليؤمل العاملون منهم فى أن يسودوا كما ساد ، وأن يشيدوا كاشاد ، ولينظروا إلى سبق الغرب للشرق الآن على أنه دورة من دورات الفلك ، لاعلى أنه تفوق في الاستعداد ، أو تميز في العقل ، أو تفرد في النبوغ ، فقد يما نقل الغرب عن الشرق ، وفي العصور الوسطى تلمذت أوروبا على العرب ، فهل نرجي في القريب أن نستعيد ما مضى ؟ هل نأمل أن يتقدم المسلمون العالم ويتباهوا منه موضع الإمارة والصدارة ؟ أليس من المستطاع أن ينبع في العالم الإسلامي أو العربي من يفرّع في تفكيره ، ويبرع في تعبيره ، ويبتكر من الأفكار ما يهرا العالم ، ويشغل الدارسين ؟ اللهم إن هذه الآمال ميسورة التحقيق ، إذا خلصت النيات ، وصحت العزمات ، وصاحبها التوفيق .

المراجع

مرتبة ترتيبها هجاءيا

- ١ - آراء أهل المدينة الفاضلة . الفارابي . نشره الدكتور فرديريك ديتريسي Dr. Friedrich Dieterici.
- ٢ - أبجد العلوم . أبو الطيب صديق بن حسن الهندى . المطبعة الصديقية بالهند ١٢٩٥ھ .
- ٣ - ابن خلدون . حياته وتراثه الفكري . الأستاذ محمد عبد الله عنان . مطبعة دار الكتب ١٩٣٣م .
- ٤ - الإحاطة في أخبار غرناطة . لسان الدين بن الخطيب . مطبعة الموسوعات ١٣١٩ھ .
- ٥ - إحصاء العلوم . الفارابي . نشره الدكتور عثمان أمين . مطبعة دار الفكر العربي ببصر ١٩٤٩م .
- ٦ - إخوان الصفا . الأستاذ عمر الدسوقي . مطبعة البابي الحلبي بصر ١٣٦٦ھ - ١٩٤٧م .
- ٧ - أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض . المقرى . طبعة تونس ١٣٣٢ھ .
- ٨ - إغاثة الأمة بكشف الغمة . المقرizi . نشره الدكتور مصطفى زيادة والدكتور جمال الشيال . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٩ھ - ١٩٤٠م .

- ٩ - البيان والتبين . الجاحظ . نشره الأستاذ عبد السلام هارون . مطبعة لجنة التأليف ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م .
- ١٠ - تاريخ آداب اللغة العربية في الأندلس والدول المتابعة . الأستاذ أحمد السكندرى بك ١٢٤٦ هـ - ١٩٢٧ م .
- ١١ - تاريخ التربية . الأستاذ مصطفى أمين بك . مطبعة المعارف تاریخ التربیة . ١٣٤٣ هـ - ١٩٢٥ م .
- ١٢ - تاريخ الفلسفة اليونانية . الأستاذ يوسف كرم . مطبعة لجنة التأليف ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م .
- ١٣ - التربية في العصور الوسطى . الأستاذ شرف الدين خطاب . مطبعة الاستقامة ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣ م .
- ١٤ - التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً . خطوط بدار الكتب تاريخ . ثم رجعت إلى الكتاب المطبوع ، نشره الأستاذ محمد ابن تاویت . مطبعة لجنة التأليف ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م .
- ١٥ - التهديد في الرد على الملحدة المعطلة . . . الباقلاني . نشره الأستاذان محمد الخضيرى و محمد عبد الهادى أبو ريدہ . مطبعة لجنة التأليف ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م .
- ١٦ - الجغرافيا التجارية والاقتصادية والجغرافيا البشرية . الأستاذ محمد حمدى يك .
- ١٧ - رسائل إخوان الصفا . طبعة بومني .
- ١٨ - رسائل الكندي الفلسفية . نشرها الأستاذ محمد عبد الهادى أبو ريدہ مطبعة الاعتماد بمصر ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م .

- ١٩ - رسالة السياسة . ابن سينا . من مجموع مقالات فلسفية قديمة . المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩١١ م .
- ٢٠ - رسالة السياسة . الفارابي . من المجموع السابق .
- ٢١ - رسالة مدح التجار . الجاحظ . من مجموعة رسائل للجاحظ . نشرها ساسي . مطبعة التقدم ببصر ١٣٢٤ هـ .
- ٢٢ - سيرة ابن هشام . نشرها الأستاذ محمد حمبي الدين عبد الحميد . مطبعة حجازى بالقاهرة .
- ٢٣ - ضحي الإسلام . الأستاذ أحمد أمين بك . مطبعة الاعتماد بصر ١٣٢٣ هـ - ١٩٣١ م .
- ٢٤ - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع . السخاوى . مكتبة القديمى .
- ٢٥ - العرب قبل الإسلام . جرجى زيدان .
- ٢٦ - العقل الباطن . سادر . ترجمة الأستاذ عباس حافظ ١٩٤٦ م .
- ٢٧ - فلسفة ابن خلدون الاجتماعية . الدكتور طه حسين . مطبعة الاعتماد ١٣٤٣ هـ - ١٩٢٥ م .
- ٢٨ - فوات الوفيات . ابن شاكر . المطبعة الأميرية ١٢٩٩ هـ .
- ٢٩ - في التربية . الدكتور على عبد الواحد وافي . المطبعة الرحمانية ببصر ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٤ م .
- ٣٠ - في علم النفس . الأستاذ حامد عبد القادر والأستاذ محمد عطية الإبراشى . المطبعة المصرية ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٤ م .
- ٣١ - قواعد المنهج في علم الاجتماع . إميل دوركهايم . ترجمة الدكتور محمود قاسم .
- ٣٢ - الكامل في التاريخ . ابن الأثير . المطبعة الأميرية .

- ٣٣ - اللوائـ النظمـ في رومـ التعلمـ والتعلـيمـ زـكرياـ الأنصـارـيـ . مـطبـعةـ
الموسـوعـاتـ بمـصـرـ ١٣١٩ـ مـ .
- ٣٤ - محـاضـراتـ في تـاريـخـ الـأـدـبـ الـعـرـبـيـ . الدـكتـورـ أـحـمـدـ ضـيـفـ . مـطبـعةـ
الـلـعـومـ بمـصـرـ ١٣٥٤ـ مـ - ١٩٢٥ـ مـ .
- ٣٥ - المعـجبـ في تـلـخـيـصـ أـخـبـارـ الـمـغـربـ . مـحـيـيـ الدـينـ بنـ عـبـدـ الـواـحـدـ .
المـطبـعةـ الجـمالـيـةـ بمـصـرـ ١٣٣٣ـ مـ - ١٩١٤ـ مـ .
- ٣٦ - مـقـدـمةـ اـبـنـ خـلـدونـ . المـطبـعةـ الـأـزـهـرـيـةـ بمـصـرـ ١٣٤٨ـ مـ - ١٩٣٠ـ مـ .
- ٣٧ - مـقـدـمةـ فيـ عـلـمـ النـفـسـ الـاجـتـمـاعـيـ . دـكتـورـ شـارـلـ بـلـونـدـلـ . تـرـجمـةـ
الـدـكتـورـ مـحـمـودـ قـاسـمـ وـالـدـكتـورـ إـبرـاهـيمـ سـلامـةـ . مـطبـعةـ الـفـسـكـرـةـ بمـصـرـ
- ٣٨ - المـواـعظـ وـالـاعـتـبارـ بـذـكـرـ الـخـطـطـ وـالـآـثارـ . المـقرـبـيـ . المـطبـعةـ
الـأـمـيرـيـةـ ١٢٠٧ـ مـ .
- ٣٩ - نـفـحـ الطـيـبـ منـ غـصـنـ الـأـنـدـلـسـ الرـطـيـبـ . المـقـرـىـ . المـطبـعةـ الـأـزـهـرـيـةـ
الـمـصـرـيـةـ ١٣٠٢ـ مـ .
- ٤٠ - وـفـيـاتـ الـأـعـيـانـ . اـبـنـ خـلـكانـ . المـطبـعةـ الـمـيـمـيـةـ بمـصـرـ ١٣١٠ـ مـ .
- De l' esprit Des lois. Montesquieu - ٤١
- The Back ground of Islam by Philby. - ٤٢

فهرس الكتاب

المقدمة

٣

٨ - ٥

عَصْرُهُ الْعِلْمِي حَيَاةٌ

١٢ - ٩

أسرته (٩) سيرته (١٠)

١٦ - ١٣

ثَقَافَتُهُ

العلوم التي درسها (١٣) أستاذته (١٢) مؤلفاته (١٥)
مصادره (١٥) شخصيته (١٧)

٢٣ - ٢٠

مَكَانِتُهُ وَأَشْرُهُ

تلמידه بمصر (٢٠) أثر المقدمة في العصور التي بعده (٢٠)
عنابة الغربيين بها (٢١) التشابه بين آرائه وآراء مونتسكيو
وجوستاف لو بون (٢١) إشادة الغربيين بذكره (٢٢) إغفال
الدارسين بعض آرائه (٢٣)

٢٥ - ٢٤

التربية الإسلامية قبله

أساس الحضارة الإسلامية (٢٤) العلوم الإسلامية (٢٤)
 كثرة علماء التربية (٢٤) أخذه عنهم (٢٥)

٥٢ - ٢٦

البيئة الطبيعية وأثرها

تأثيره بالإدريسي في تقسيم الأقاليم (٢٦) تحديد الأقاليم في
 رأي الإدريسي (٢٧) أثر البيئة الطبيعية في الأجسام (٢٧) تعليق
 على رأيه (٢٩) أثر البيئة الطبيعية في العقول والحضارة (٣٢)
 تعليق (٣٢) أثرها في الأخلاق (٣٥) تعليق (٣٨) تعليق عام
 على آرائه في البيئة الطبيعية (٤٣)

٦٧ - ٥٣

البيئة الاجتماعية وأثرها

ما البيئة الاجتماعية ؟ (٥٣) أثر الدين في الأخلاق (٥٣)
 تعليق (٥٤) أثر نظام الحكم (٥٦) تعليق (٥٦) أثر كثرة
 السكان (٥٧) تعليق (٥٨) . أثر الغالب في المغلوب (٥٩)
 تعليق (٦٠) أثر الحضارة في الأخلاق والعقول (٦١) تعليق (٦٢)
 أثر الفلاح في الأخلاق (٦٣) تعليق (٦٤) أثر التجارة في
 العقول والأخلاق (٦٤) تعليق (٦٥) تعليق عام على آرائه
 في البيئة الاجتماعية (٦٦)

طريقة التعليم

٩٤ - ٦٧

تقسيم العلوم (٦٧) الطريقة المثلثي في التعليم (٧٠) تعليق (٧١)
 تعليم اللغة (٧٤) تعليق (٧٧) تعليم الصناعة (٧٧) تعليق (٧٨)
 كتاب واحد (٧٩) تعليق (٧٩) علم واحد (٨٠) تعليق (٨٠)
 التوسيع والإجمال (٨١) تعليق (٨٢) التعليم في العالم الإسلامي
 (٩٠) تعليق (٩٢) القرآن الكريم (٩٣) تعليق (٩٤) . . .

نظم التعليم

٩٧ - ٨٥

(٨٤) إتصال مجالس التعليم (٨٥) تعليق (٨٥) الشدة والعقوبة
 تعليق (٨٧) التعليم صناعة (٨٩) تعليق (٩٠) الرحلة
 في طلب العلم (٩٤) تعليق (٩٥) المدرسون (٩٦) تعليق (٩٧)

آثار العلوم وغاياتها

١٠٤ - ١٠٠

الغاية من العلوم اللسانية . أثر علم البيان في فهم الإعجاز ، أثر
 القرآن الكريم في الإنتاج الأدبي (١٠٠) الغاية من علم
 الأدب (١٠١) الغاية من العلوم الأخرى (١٠١) تعليق (١٠١)
 إغفاله تعليم البنت (١٠٢)

١٢٢ - ١٠٥

آراؤه في علم النفس

- دراسة النفس ضرورية للمربيين (١٠٥) تعليق (١٠٥)
 الملوك (١٠٦) تعليق (١٠٧) العقل الجمعي (١٠٩) تعليق (١١١)
 آراؤه في الفطرة (١١٢) تعليق (١١٣) الذوق اللغوي (١١٤)
 تعليق (١١٥) الإيحاء (١١٦) تعليق (١١٦) التعلم طبيعة (١١٨)
 تعليق (١١٨) الأحلام (١١٩) تعليق (١٢٠) . . .

١٦١ - ١٢٣

مكانته الأدبية

- الحالة السياسية في المغرب ، النزاع والثورات والانقسام (١٢٣ - ١٢٥) الحالة الأدبية ، القلق والاضطراب، تشجيع بعض الأمراء للعلماء والأدباء ، هجرة بعض الأندلسيين إلى إفريقيا ، ضعف الأدب في إفريقيا والمغرب ، أسباب هذا الضعف (١٢٥ - ١٢٧) النثر في عصر ابن خلدون ، حاكاة الأندلسيين والمغاربة للشارقة ، بواعث هذه المحاكاة ومظاهرها (١٢٧ - ١٢٩) الطريقة الشائعة في عصره (١٢٩) خصائص طريقة القاضي الفاضل ولسان الدين بن الخطيب (١٢٩ - ١٣٥) صلة ابن خلدون بلسان الدين (١٣٦) دراسته الأدبية (١٣٧) رأيه في طريقة إجادة اللغة والأدب (١٣٩)

١٤٩ - ١٤١

ذُر ابن خلدون

موضوعاته (١٤١) خصائصه (١٤٢) الترسل (١٤٢) قلة السجع
 والمحسنات (١٤٤) الجزلة والقوة في تعبيره عن عاطفة أو
 دفاعه عن فكرة (١٤٦) الترسل الخالي من القوة في شرح
 القضايا العلمية (١٤٧) وضع كثير من المصطلحات (١٤٧)
 تطوير اللغة للتعبير عن المعانى الدقيقة (١٤٨) مخالفة القواعد
 الصرفية واللغوية أحياناً (١٤٨) إطالة الجمل وتدخلها (١٤٨)
 أثره فيمن بعده (١٤٩)

١٦١ - ١٥٠

شعر ابن خلدون

اعترافه بأنه لم يبلغ حد الجودة (١٥٠) أغراض شعره (١٥١)
 خصائصه (١٥٢) الجزلة والقوة والرقابة والغدوة (١٥٢) براعة
 الوصف (١٥٥) المهارة في الاستعطاف والاعتذار (١٥٦)
 الطول (١٥٨) ترتيب الأفكار والبعد عن المحسنات (١٥٩)
 ضحولة الخيال (١٥٩) ضعف التعبير أحياناً (١٥٩) المبالغة
 أحياناً (١٦٠) بعض التأثر بالمصطلحات العلمية (١٦٠) الإكثار
 من الإعجاب بقوله الله كذا (١٦١)

١٦٢

كلمة ختامية

١٦٣

المراجع

تصويب

الصواب	سطر	صفحة
أبي إسحاق الحفصي	١٨	١٠
الإدريسي	١٢	١٣
ابن خلدون	١٠	١٥
(... سرى به النسم) والمرجع الضوء اللامع ١٤٥ / ٤ وفي السطر التالي (كما سيجي و) والمرجع الموعظ والاعتبار ٤٢ - ٤٥ / ١	١٠	٢٠
وأى في هذا الموضوع	٨	٢٢
الجواء	٢	٥٢
ويقرب	١٦	٥٥
الفاران	١١	٥٧
اتجهوا	١٠	٦١
بذلك	١٦	٦٣
فوق (تقسيم العلوم) عنوان (منهج التعليم وطريقته)	-	٦٧
بجمع عليه	١١	١٠٥

